دور الغزالي

في الفكر

تأليف

الدكتور حسن الفاتح قريب الله

عميد كلية الآداب (حاليا)

وعميد الطلاب ورئيس قسم الدراسات الفلسفية والاجتماعية

ومدير جامعة أم درمان الاسلامية بالانابة (سابقا)

١٣٩٨هـ — ١٩٧٨م

مطبعة الأمانة

٣ شارع جزيرة بدران شبرا - مصر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وكفى ، وصلاة وسلام على حبيبه المصطفى ، وعلى آله ، وأصحابه ، وأتبـــاعه ، الذين اصطفى

مقدمة

الغزالى شخصية فذة وعبقرية شامخة ؛ درس العلوم من صغره وكان عنده شغف فى الاطلاع عليها والإلمام بها ، ولذا بلغ الغاية فى معظم العلوم التى كانت شائعة فى عصره وإذا ذكر أى مفكر فى الشرق أو الغرب لوجدنا أنه اشتهر بعلم واحد من العلوم ، أما إذا ذكر الغزالى لكنا أمام جبل شامخ وشخصيات متعددة ومواهب عظيمة فى شتى العلوم والمعارف .

فقد كان نابغة زمانه فى الفقه الشافعى حتى صار إماما مجتهدا ، وله فتاوى تدل على فهم عميق للأصول ولطرق الاستنباط .

وكان أوحد عصره فى علم الكلام ، فقد كان متكلما أشعريا حذق فن المناظرة والجدل وناظر علماء الفرق المخالفة للأشعرى فأفحمهم وانتصر عليهم وانتصرت طريقة الأشعرى بقوة جدله وعلو كعبه فى فن المناظرة وله مؤلفات فى علم الكلام لا زالت تعد من المراجع المهمة إلى اليوم .

وكان منطقيا فذا حاذقا درس المنطق وله فيه تصانيف مفيدة سهلت على دارس هذا العلم فهم مسائله ومعضلاته وكان ينتصر للمنطق حتى أثر عنه « من لا معرفة له بالمنطق فلا يوثق بعلمه » وكان مفسرا ألمعيا يغوص على المعانى الدقيقة فيخرجها فتظهر على يديه جواهر ناصعة تخلب الألباب ، وكان فيلسوفا ماهرا درس الفلسفة وأتى على دقائقها

فيهما وتعمقا فى أقل من ثلاث سنين وعرف لها محاسنها ومساوئها فمدح محاسنها وعاب مساوئها وأبان تهافتها بكتابه تهافت الفلاسفة حتى عده المفكرون من كبار الفلاسفة من أجل هذا الكتاب ؛ لأنه انتقد فيه الفلاسفة ببضاعتهم وحاربهم بأسلحتهم .

وكان متصوفا رقيق القلب غزير العلم درس التصوف النظرى من كتب المحاسبى والجنيد وغيرهم حتى بلغ فيه الغاية ، ثم تقلب فى مقامات التصوف وأحواله سالكا الطريق إلى ربه حتى بلغ درجة المعرفة والكشف وانكشفت له حقائق يضيق عنها نطاق النطق ، كما قال ، ولم يكتف الغزالى بتبحره فى هذه العلوم الكثيرة فقد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور دأبه وديدنه من الصغر فخاض أيضا فى علم الحرف وأسرار الروحانيات وخواص الأعداد ، وألف فيه كتابا يسمى بالأوفاق .

فنحن إذن أمام عبقرية فذة ، ومواهب متعددة ، من الناحية العلمية والعقلية .

فلا يأخذنا العجب إذا رأينا له تأثيراً قوياً على ثقافة العالم وبصمات قوية واضحة على الفكر الإنسانى .

فقد أثر الغزالى بمواهبه المتعددة على مفكرى الشرق والغرب على السواء الذين جاءوا من بعده . قال عبد الرحمن بدوى فى مقدمة كتابه مؤلفات الغزالى « الغزالى — كأرسطو — من أعلام الفكر الإنسانى ، الذين بلغوا فى حياتهم ، ومن بعد وفاتهم ، أرفع مكانة

بين الناس » وقد صدق فيما قال فالغزالى من أعلام الفكر العالمى ولهذا اخترت عنوان الكتاب الذى أقدمه للقراء الآن « دور الغزالى فى الفكر » وهو عنوان يطابق ما يشتمل عليه الكتاب تمام المطابقة ، والمطالع لصفحات هذا الكتاب سيجد مصداقا لما أقول من الأعداد الضخمة من الكتب التى ألفها الغزالى أو التى ألفت عنه أو الكتب التى ألفها أصحابها لشرح كتب الغزالى ، أو لبيان مقاصده فى كتبه أو لنقد الأفكار التى أوردها فى كتبه والرد عليها .

وسيجد المطالع لهذا الكتاب تأثير الغزالى على الفكر الإسلامى والفكر الإنسانى والعالمى ، واضحا وضوح الشمس فى رائعة النهار .

فقد كان دوره فى الفكر الإسلامى عظيما ورائعا أثرى فيه الفكر الإسلامى بتصانيف دقيقة فيها من الأفكار العميقة ما جعله يأخذ مكانا مرموقا فى الفكر العالمى .

أما تأثيره فى الفكر العالمى فيتبين من عدد كتبه التى ترجمت إلى لغات العالم الحية وأثرت فى مفكريها تأثيرا عميقا . ويكفى أن نلقى نظرة على أسماء علماء الغرب ومفكريه الذين شغلوا أنفسهم بترجمة كتب الغزالى إلى لغاتهم والتعليق عليها ، فنذكر بعض الذين ورد ذكرهم فى ثنايا هذا الكتاب وهم : ماكدونالد ، وجولدتسيهر ، وجيردنر الذى ترجم مشكاة الأنوار ، وماسينيوس وآسين بلاسيوس وغيرهم كثيرون .

ويكفى لمعرفة أثر فكر الغزالى على الفكر العالمى أن كثيرا

من الباحثين فى الشرق والغرب على السواء يقارنون فى أبحاثهم بين ديكارت والغزالى فى الشك مثلا ، وبين الغزالى والفيلسوف الفرنسى « باسكال » فى الإلهيات ، وبين كانط والغزالى فى نقد العقل النظرى والعملى على السواء .

وأرجو أن يكون فى هذا الكتاب الذى أقدمه بين يدى القارىء شفاء الغليل لكل ما يبحث عنه من دور الغزالى فى الفكر الإسلامى والعالمى .

والله أسأل أن يهدينا جميعا لما فيه الحق والصواب ؟

د . حسن الفاتح قريب الله

أم درمان فى ١٥ يوليو سنة ١٩٧٨ م

الفصل الأول

عصر الغزالي

١ — السياسي

كان الغزالي يعمل في جو سياسي مضطرب؛ إذ كان هناك الخليفة الذي لا يملك في الحكم إلا الخطابة باسمه على المنابر[1] وإلى جانبه السلطان السلجوقي الذي يسيطر هو أو وزراؤه على الجيش والسياسة[2] في يدهم القدرة لا على تنفيذ قراراتهم فحسب بل على عزل الخليفة إن شاءوا[3].

وكان معاصرو الغزالي من الخلفاء المقتدي بالله (٤٨٧ هـ) ثم المستظهر بالله (٥١٢ هـ).

ومعاصروه من السلاطين عضد الدولة ابن ارسلان (٤٦٥) وجلال الدين ملكشاه (٤٨٥) ناصر الدين محمود (٤٨٧) ركن الدين أبو المظفر بركياروق (٤٩٨) ركن الدين ملكشاه الثاني (٤٩٨) محمد بن ملكشاه (٥١١)[4]:

وكان بعض هؤلاء السلاطين الذين عاصرهم الغزالي قد تغلب عليهم

---

(١) ابن خلدون : العبر جـ ٣ الصفحات ٢٨٠ — ٢٨٢ ، (٤٠١ ، ٤٨٠) سيرة الغزالي للعثمان وعبد اللطيف الطيار — التصوف الإسلامي العربي ص ٤٣

(٢) ابن خلدون : العبر جـ ٣ ص ٤٧٨

(٣) ابن العماد : شذرات الذهب جـ ٣ ص ٣٧٦ ؛ ٣٧٧

(٤) العثمان : سيرة الغزالي المقدمة ص ٢٥ — ٢٦

وزراؤهم فأصبحوا كالخلفاء ، ألعوبة فى أيديهم ، لايملكون حلا ولا ربطا[١] .

ولعل أشهر هؤلاء الوزراء وأكثرهم نفوذا وذيوع صيت هو الوزير نظام الملك (قتل سنة ٤٨٥) الذى لم يقنع بأن يستأثر هو وأولاده بالسلطة بل حملته الدالة على أن يمتن على السلطان قائلا له : إن دواتى مقترنة بتاجك فتى رفعتها رفع ومتى سلبتها سلب[٢] غير أن هذا الوزير لم يلبث أن اغتيل بيد أحد الباطنية ، فلم يخلفه من أولاده من بلغ فى العظمة مبلغه[٣] .

وقد كان اغتيال هذا الوزير فاتحة اغتيالات كثيرة قام بها الباطنية للتخلص من أعدائهم فى مختلف الأقطار الإسلامية[٤] مما فرض جوا إرهابيا عاما لم يأمن خاصة الناس فيه بل عامتهم على حياتهم وقد انقسم الناس بفعل هذا الجو فريقين :-

(أ) فريق جاهرهم بالعداء فلم يعد يجسر ولو كان أميراً على الخروج من منزله حاسرا بل كان يلبس تحت ثيابه درعا .

(ب) فريق سالمهم فلم يعد يأمن أن ينسبه الآخرون إلى الارتكاس

---

(١) ابن خلدون . العبر ج ٥ ص ١٣ و ج ٣ ص ٤٧٨ وابن العماد : شذرات الذهب ج ٣ الصفحات ٣٧٣ — ٣٧٧ وابن الجوزى : المنتظم ج ٩ صفحات ٦٢ — ٦٨ — وتواريخ آل سلجوق الصفحات ٥٥ — ٦٠

(٢) زكى مبارك : الأخلاق ص ١٨

(٣) السبكى : طبقات الشافعية

(٤) ابن خلدون : العبر ومحمد كامل حسين : طائفة الاسماعيلية ص ٦٣

فى عقيدته . وعلى هذا فقد كان الناس من الباطنية على خطر عظيم ؛ سالموهم أو عادوهم .

وقد كانت لهؤلاء الباطنية دولة بمصر عرفت باسم الدولة الفاطمية عاصر الغزالى من خلفائها المستعلى بالله الذى لم يعترف به الحسن ابن الصباح (٤٣٠ هـ) فأعلن الولاء لأخيه نزار ، وعاصر من حكامها كذلك الآمر بأحكام الله على بن المنصور بن المستعلى (٤٩٠هـ — ١٠٩٧م وتوفى ٥٢٤ هـ — ١١٣٠ م) وعاصر من حكام الولايات الإسلامية المغربية يوسف بن ناشفين توفى سنة (٥٠٠هـ — ١٠٦م) وابنه من بعده ، كما شهد أو سمع بالغزو الصليبى الذى استغل خلافات المسلمين فأسس عدة امارات سميت بالأمارات اللاتينية نسبة إلى الأجناس التى كان يتألف منها حملة الصليب(١) :

٢ — البيئة الاجتماعية

لم يكن مستغربا ، والحالة السياسية كما وصفنا ، أن تنعكس آثارها على المجتمع فتفسد أخلاق الأفراد(٢) ، وتتفاقم الفتن بين الجماعات :

---

(١) العثمان : سيرة الغزالى ص ٢٨ ومحمد كامل حسين : طائفة الإسماعيلية ص ٦٤ وتواريخ آل سلجوق للاصفهانى .

(٢) ابن خلدون : العبر جـ ٣ ص ٤٧٧ وص ٥٣٢ — ٥٣٨ وابن الجوزى المنتظم جـ ٩ وابن جبير : رحلة بن جبير ص ٢١٨ — ٢١٩ والغزالى : الاحياء جـ ٣ ص ٣٢٧ — ٣٥٦ والغزالى : بداية الهداية والكفاية شرح البداية للماكى ص ١٥٠ — ١٥١ (مخطوط بالمتحف البريطانى)

الاشاعرة يكفرون ويزندقون الشيعة من جانب[١] والمعتزلة[٢] والفلاسفة[٣] من جانب آخر . ويكفر أو يزندق الحنابلة الشافعية من جانب وسائر أتباع المذاهب الأخرى من جانب آخر[٤] ، وقد كادت أحيانا تتبع التكفير خسارات مادية ودموية : بعضها بتشجيع الحكام والبعض الآخر بتشجيع الجو العام[٥] ، ولم يكن وقتها يأمن العالم على نفسه من أن يتهم بالميول إلى الباطنية فيقتل[٦] وبالتبعية لمذهب خاص فيعاقب بالحبس[٧] أو بالطرد[٨] أو بالرجم[٩]

---

(١) ابن الجوزى : المنتظم جـ ٩ ص ٢٦ — ٢٧ و ٢٩ ، ٧٠ ، ٨٩ — ٩٠
وابن خلدون : العبر جـ ٣ ص ٤٧٧ وص ٥٣٢ — ٥٣٨
وابن العماد : شذرات الذهب جـ ٢ ص ٣٧٩ — ١٨٦
وأبو شامه : تراجم رجال القرنين ص ١٦

(٢) الجوزى : المنتظم ص ٨٩ ، ٩٠ وابن العماد : شذرات الذهب ص ٢٢١ — ٢٢٣

(٣) زكى مبارك : الاخلاق عند الغزالى .

(٤) البغدادى : تواريخ آل سلجوق ص ٣٢ — ٥٣ وابن خلدون . العبر جـ ٣ ص ٥٣٢ — ٤٧٣ وابن الجوزى المنتظم جـ ٩ ص ٣ ، ٤ ، ٩٣ ، ٨٩ — ٩٠
وشذرات الذهب جـ ٣ ص ٣٥٣ وجـ ٤ ص ١٤ ، ١٥ ، ١١٨ ، ٢٢٤ ،
وأبو شامة : تراجم رجال القرنين ص ٢٨ — ١٩ والمسبكى جـ ٤ ص ٦٤ — ٩٥

(٥) راجع كل المراجع المذكورة سابقا .

(٦) ابن تامرى : النجوم الزاهرة جـ ٢ ص ٣٥٦ — ٣٥٧

(٧) ابن العماد : شذرات الذهب جـ ٤ ص ١١٨

(٨) ابن العماد . شذرات الذهب جـ ٤ ص ١١٨

(٩) ابن الجوزى : المنتظم جـ ٩ ص ٣ ، ٤

أو بالصلب أو القتل[١] أو على الأقل المهجر ، حتى لقد يلزم بيته ربة خمسين عاما لا يجرؤ على الظهور[٢] .

وكانت بغداد على الأخص مركزا لمعظم المشاحنات والنزاعات مما زهد الغزالى فيها فسلق طوائفها وأفرادها بلسان حاد ، مثله فى كل مثل ابن جبير (٥٤٠ــ٦١٤) وابن خلدون (٨٠٨) :

٣ ـ البيئة العلمية :

لئن كانت المطامع السياسية قد أنتجت من الخلافات ما ذكرنا فقد نضجت الثمار العلمية فى ذلك العصر بفعل التنافس والتبارى الذى ساد الإمارات الإسلامية المختلفة[٣] .

ففى بغداد وغيرها من المدن الخاضعة للسلطان تبنى الوزير نظام الملك ـ بمساعدة الخلافة ـ المذهب الشافعى والسنى وأنشأ لتدريسهما المدارس المختلفة فى بغــداد وبلخ ونيسابور وهرأة واصبهان والبصرة ومرو وآمل وطبرستان والموصل ، بل يقال إن له بكل مدينة بالعراق وخراسان مدرسة تحمل لقبه وأودع هذه المدارس نفائس الـكتب ، وكان يشترط فى بعض المدارس أنها وقف على أصحاب الشافعى أصلا وفرعا ، وكذلك

---

(١) ابن خلدون : العبر جـ ٥ ص ٨٤

(٢) ابن الجوزى : المنتظم جـ ٩ ص ١٠٢

(٣) أحمد أمين : ظهر الإسلام جـ ٩ ص ٢ وابن العماد : شذرات الذهب جـ ٣ ص ٢٧٣ ــ ٢٧٥ وجـ ٤ ص ٢٢١ ــ ٣٢٣ والدكتور عبد الوهاب عزام : سوانح أحمد الغزالى ــ مجلة كلية الآداب العدد الثامن المجلد الثانى ديسمبر ١٩٤٦ مطبعة جامعة فؤاد الأول ١٩٤٧

الأملاك الموقوفة عليها شرط فيها أن تكون على أصحاب الشافعى أصلا وفرعاً وكذلك شرط فى المدرس الذى يكون بها والواعظ الذى يعظ بها ومتولى الكتب وشرط أن يكون فيها مقرىء يقرؤ القرآن ، ونحوى يدرس العربية ، وفرض لكل قسطاً من الوقف[١] .

واقتدى بنظام الملك فى ذلك آخرون فبنى شرف الملك مدرسة للحنفية على ضريح أبى حنيفة بباب الطاق سنة ٤٥٦[٢] وبنى غيره مدارس[٣] ومكتبات[٤] خاصة حتى ليقول ابن جبير إن المدارس ببغداد وحدها بلغت نحو الثلاثين وما من مدرسة إلا ويقصر القصر البديع عنها ويقول : ولهذه المدارس أوقاف عظيمة وعقارات محبسة تتصير إلى الفقهاء المدرسين بها ويجرون بها على الطلبة ما يقوم بهم[٥]

وكثيراً ما كانت تعقد حلقات النقاش بين أصحاب المذاهب المختلفة من جانب[٦] وبين الباطنية الذين نشطوا فى إرسال الدعاة لمذهبهم من جانب آخر[٧] .

---

(١) ابن الجوزى : المنتظم جـ ٩ ص ٦٥ — ٦٦

(٢) البغدادى : تواريخ آل سلجوق جـ ١ ص ٣٢

(٣) السبكى : طبقات الشافعية جـ ٤ ص ٥٧ — ٥٨

(٤) ابن الجوزى : المنتظم جـ ٩ ص ٤٢ - ٤٣

(٥) ابن جبير : رحلة ابن جبير ص ٩٢٩

(٦) محمد كامل حسين : طائفة الإسماعيلية ص ٧٧ .

(٧) السبكى : الطبقات جـ ٥ ص ١٦٩ ومحمد كامل : طائفة الإسماعيلية ص ٧٨ .

كما تؤلف الكتب فى نصرة هؤلاء أو أولئك (١) كما كانت هناك مجالس العلم ومجالس الوعظ والتصوف التى بلغ طولها مائة وسبعين ذراعاً وعرضها مائة وعشرين ذراعا. هذا من الرجال أما النساء فكانت المساحة التى شغلوها أكثر من ذلك (٢).

هذا ولم تخل البلاد الإسلامية بالطبع من أدعياء ومنتفعين فى كل ميدان استغل بعضهم تأييد الدولة لمذهب فاعلن الانضمام إليه، وكراهية الناس لمذهب فأعلن حربه عليه (٣) كما استغل آخرون سذاجة الناس فادعى المهدية والتنبؤ بالغيب، وغير ذلك من الدعاوى الطويلة العريضة (٤).

وكان العلماء موضع احترام الخاصة والعامة حينما حلوا وأينما ارتحلوا (٥) حتى لقد عوتب بعض الوزراء على اشتغاله بالعلماء أكثر من اشتغاله بأمور الدولة غير أنه أجاب بأن هذه الطائفة هم أركان

---

(١) ابن الجوزى : المنتظم ج ٩ ص ٧٥ — ٧٦ وابن تغرى : النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٢٨٥ وتواريخ آل سلجوق ص ٥٢ — ٥٣ وشذرات الذهب ج ٣ ص ٣٤٩ — ٣٥٣ — ٣١٩ — ٣٢١.

(٢) ابن العماد : شذرات الذهب ج ٤ ص ٣٤٨.

(٣) الغزالى : الاحياء ج ٣ ص ٣٣٤ فما بعدها وابن الجوزى : المنتظم ج ٩ ص ٥٣ ، ٥٨ وابن شاكر : فوات الوفيات ج ١ ص ١٢٠ — ١٢١.

(٤) أحمد أمين : ظهر الاسلام ج ٢ ص ٣ وزكى مبارك : الأخلاق والمنتظم ج ٩ ص ٩٣.

(٥) المرجع السابق.

الإسلام وهم جمال الدنيا والآخرة ولو أجلست كلا منهم على رأسى لاستقلت لهم ذلك [١] .

وقد كان من المألوف ألا يبت فى رأي إلا إذا استفسر فيه عالم [٢] وألا يتم تعيين خليفة أو سلطان إلا إذا حضر المجلس واحد منهم [٣] وقد كان لبعض هؤلاء نفوذ روحى على الوزراء [٤] والأمراء [٥] . ومما يذكر فى هذا الشأن أن أمير المسلمين يوسف ابن تاشفين لم يحرق كتب الغزالى إلا بفتوى المالكية فى بلاده .

إذ كان كما يقول ابن الأثير : يميل إلى أهل العلم والدين ويكرمهم فى بلاده ويحكمهم ويصدر عن رأيهم [٦] .

هذا وقد كان الجميع بالرغم من انصرافهم للعلم يهملون أعظم جانب فيه وهو جانب العمل مما حدا بالغزالى أن يشن على جميع الطوائف هجوما عنيفا من غير استثناء عبر فيه عن استيائه لأن يبيع الناس خاصتهم وعامتهم الحياة الباقية بالحياة الفانية [٧] .

(١) ابن الجوزى . المنتظم جـ ٩ ص ٦٤ — ٦٨ .

(٢) ابن العماد : شذرات الذهب جـ ٣ ص ٤١٢ وابن خلدون العبر جـ ٥ ص ١٣ والمنتظم جـ ٩ ص ٦٢ — ٦٣ .

(٣) ابن خلدون : العبر جـ ٣ ص ٤٧٢ .

(٤) ابن الجوزى : المنتظم جـ ٩ ص ٦٤ — ٦٨ .

(٥) وابن العماد : شذرات الذهب جـ ٣ ص ٤١٢ — ٤١٣ والعبر جـ ٣ ص ٤٩٣ ، ٤٧٨ .

(٦) ابن العماد : شذرات الذهب جـ ٣ ص ٤١٢ — ٤١٣ .

(٧) الغزالى : رسالة أيها الولد .

حياة الغزالى

ولد الغزالى من أسرة عرفت بالعلم والاقبال عليه والرغبة فى تحصيله ونشره فقد كان :

(أ) عمه (عم أبيه أخو جده أو أخو أبيه) أبو حامد أحمد بن محمد الغزالى المشهور بالغزالى الكبير أو القديم أو الماضى — عالما أذعن له فقهاء الفريقين وأقر بفضله فضلاء المشرقين والمغربين إن حاور العلماء كان المقدم وإن ناظر الخصوم كان الفحل المقرم. له فى الخلافيات والجدل ورءوس المسائل والمذاهب تصانيف[1].

(ب) وأخوه أبو الفتوح مجد الدين أحمد بن محمد الغزالى كان من فقهاء الشافعية وعلمائهم فقد تولى التدريس بالمدرسة النظامية ببغداد أثر مفارقة أخيه محمد لها[2] وله من الكتب :

١ — الذخيرة فى علم البصيرة والكتاب يتضح من عنوانه أنه

---

(١) السبكى : طبقات الشافعية الكبرى ج ٣ ص ٣٥ — ٣٦ وراجع ما التقاه ابن الصلاح من كتاب المهذب فى ذكر شيوخ المذهب ، والأنساب للسمعانى وراجع تعليقه . الامام محمد بن يحى صاحب الغزالى فى الزكاة فى مسألة التلف بعد التمكن و توفيق الصباغ فى مقدمته لرسالة أيها الولد للغزالى .

(٢) الدكتور عبد الوهاب عزام بك : سوانح أحمد الغزالى مجلة كلية الآداب العدد الثامن ديسمبر سنة ١٩٤٦ مطبعة جامعة فؤاد الاول سنة ١٩٤٧ ص ٢ والذهبى سير الأعلام النبلاء مخطوط نشر جزءاً منه الدكتور عبد الكريم العثمانى فى كتابه سيرة الغزالى ص ٦٩ .

خاص بالتصوف وقد جمع فيه صاحبه مافرقه أخوه أبو حامد فى تصانيفه الكثيرة من العلوم وحصرها فى أربعة أصول :

١ — فى معرفة النفس .

٢ — فى معرفة الرب .

٣ — فى معرفة الدنيا .

٤ — فى معرفة الآخرة[١] .

٢ — لباب الاحياء وقد اختصر فيه صاحبه كتاب أخيه محمد الغزالى إحياء علوم الدين[٢] وطبع الكتاب فى سنة١٣٩٨هـ .

٣ — سوانح العشاق[٣] وهو كتاب باللغة الفارسية تحدث فيه عن حقائق العشق وأحواله وأغراضه وقد طبع هذا الكتاب فى أسطنبول[٤] .

---

(١) حاجى خليفة : كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون جـ ١ ص ٨٢٥ .

(٢) حاجى خليفة : كشف الظنون . جـ ١ ص ٢٤ : السبكى : طبقات الشافعية جـ ٤ ص ٤٠ — ٥٥ .

(٣) حاجى خليفة : كشف الظنون : جـ ٢ ص ١٠٠٩ وقد كتب الدكتور عبد الوهاب عزام مقاله عن الكتاب المذكور سماها سوانح أحمد الغزالى وتقع المقالة فى أربعة عشر صفحة إلا أن معظمها مختارات ونقول من الكتاب المذكور .

(٤) طبعه الأستاذ المحقق الدكتور ريتر وكتب له مقدمة قصيرة ترجمها عن الألمانية إلى العربية الدكتور فؤاد حسنين راجع ص ١٣ سوانح الغزالى .

وكان أحمد المذكور (من أحسن الناس كلاما فى الوعظ وأرشقهم عبارة ، مليح التصرف فيما يورده من الاستشهاد ، أظرف أهل زمانه وألطفهم طبعا. خدم الصوفية فى عنفوان شبابه ويحب المشايخ واختار الخلوة والعزلة حتى انفتح له الكلام ، ومالت إليه قلوب الناس وأحبوه)[١] .

(ج) وأبوه محمد بن محمد الغزالى وإن لم يكن يساوى عمه المذكور فى التحصيل العلمى إلا أن رغبته فى العلم لاتقل عن رغبةالغزالى الكبير فقد عرف عنه حرصه على حضور مجالس الوعظ والعلم واصغاؤه لما يسمع بعناية قد تحدث فى القلب رقة يعقبها بكاء فدعاء بأن يرزق الله ولديه من العلم مثل مايسمع من هؤلاء الذين أعجب بهم .

ولعل من آيات ذلك أن وفر قبل وفاته مالا أودعه عند صاحب له صوفى قائلا له : (إن لى لتأسفا عظيما على تعلم الخط وأشتهى استدراك مافاتنى فى ولدى هذين فعلمهما ولا عليك أن تنفد فى ذلك جميع ما أخلفه لهما) .

ومات الوالد الحريص على العلم[٢] وبعد مدة فنى ماخلفه لولديه من مال وكان الصوفى من الفقر بحيث لم يستطع مواساة الغزالى وأخيه أحمد فاوصاهما بأن يلجآ إلى مدرسة ليحصل لهما بطلب العلم قوت يعينهما على الدراسة .

---

(١) ابن النجار : تاريخ بغداد ، السبكى طبقات الشافعية .

(٢) السبكى : طبقات الشافعية .

وذهب الغزالى وأخوه للمدرسة تحدوهما الرغبة فى تحصيل القوت قبل الرغبة فى تحصيل العلم أو قل إن تحصيل القوت كان يشغل بالهما أكثر من تحصيل العلم وبانتظامهما فى المدرسة وسط مجموعة الراغبين من الشباب والشيوخ بدأت الرغبة فى العلم للعلم تأخذ مكانا ساميا من قلبيهما ثم لم تلبث هذه الرغبة أن فعلت فعلها فالتفتا التفاتا تاما للعلم ولما كان الغزالى من أذكياء الطلاب فقد كثر محصوله العلمى وغزر حتى أن زملاءه أنفسهم كانوا يدرسون عليه بعد دراستهم معاً على شيخ واحد[١] .

بدأ الغزالى تعليمه على أحمد بن محمد الرازكانى[٢] فى طوس ثم على الشيخ اسماعيل بن سعدة الاسماعيلى فى جرجـــان (المتوفى سنة ٤٨٧ هـ)[٣] حيث علق عليه التعليقة التى كان لها أكبر الأثر فى تاريخه الفكرى إذ يذكر أن اللصوص قد سرقوها منه وسط متاعه فلما ترجاهم أن يعيدوها له فعلوا بعد أن سخروا من مثل هذا العلم الذى يتجرد صاحبه منه بمثـــل هذه البساطة[٤] قال الغزالى

---

(١) السبكى : طبقات الشافعية جـ ٣ ص ٣٦ .

(٢) لم يذكر تاريخ وفاته : أنظر السبكى : الطبقات الكبرى جـ ٣ ص ٣٦ الطبعة الحسينية على أن الرجل كان حياً سنة ٤٦٥ .

(٣) يشير جبر فى مقاله أن الشيخ المقصود ليس هو أبا نصر لأنه توفى سنة ٤٢٧ بل الشيخ إسماعيل ابن سعدة الاسماعيلى المتوفى سنة ٤٨٧ راجع العثمان : سيرة الغزالى هامش ١٧ .

(٤) ونص القصة كما يرويها السبكى عن الإمام أسعد الميهنى عن الغزالى يقول قطعت علينا الطريق وأخذ العيارون جميع ما معى ومضوا فتبعتهم =

« فلما وافيت طوس أقبلنا على الاشتغال ثلاث سنين حتى حفظت جميع ما علقته وسرت بحيث لو قطع على الطريق لم أتجرد من علمى »[1] :

ثم أن الغزالى فى طائفة من شبان طوس قدم نيسابور ولازم إمام الحرمين (٤١٩ — ٤٧٨هـ) وجد واجتهد حتى برع فى المذهب الشافعى وفى الخلاف والجدل وأصول الدين وأصول الفقه وأحكم كل ذلك[2] .

وكان لإمام الحرمين من قوة الشخصية وغزارة المادة وذيوع الصيت وحرية الفكر[3] ما أحدث أثره العميق فى الاتجاه الفكرى للغزالى فتأثر بالتقاليد وآثر الحرية الفكرية التى لاتتقيد بالمذاهب ولاتؤمن بالتبعيات الموروثة من الوالدين أو المكتسبة من الأساتذة

= فالتفت إلى مقدمتهم فقال ارجع ويحك وإلا هلكت فقلت له أسألك بالذى ترجو السلامة منه أن ترد على تعليقتى فقط فما هى بشىء تنتفعون به فقال لى وما هى تعليقتك فقلت كتب فى تلك المخلاة هاجرت لسماعها وكتابتها ومعرفة علمها فضحك وقال كيف تدعى أنك عرفت علمها وقد أخذناها منك فتجردت من معرفتها وبقيت بلا علم ثم أمر بعض أصحابه فسلم إلى المخلاة وقال الغزالى هذا مستنطق أنطقه الله ليرشدنى به فى أمرها (سيرة الغزالى ص ٩٥).

(١) السبكى : الطبقات وسيرة الغزالى ص ٩٥ .

(٢) سيرة الغزالى ص ٩٥ نقلا عن السبكى .

(٣) السبكى : طبقات الشافعية جـ ٦ ص ٢٥٩ — ٢٦٠ وابن الجوزى : تلبيس إبليس الصفحات ٨٤ — ٨٥ والدكتورة : فوقيـــة حسين محمود : الجوينى إمام الحرمين ص ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ .

والكتب[١] ولعل مكتبتي[٢] المدرستين النظاميتين بنيسابور وبغداد التي عينه نظام الملك أستاذا لمدرستها في سنة ٤٨٤هـ - وقد كانتا مليئتين بمختلف الكتب - الفلسفية منها وغير الفلسفية - أعانتاه إلى حد كبير على سلوك هذا الاتجاه وشجعتاه على المضي فيه حتى ليذكر الغزالي نفسه أن هذا الاتجاه قاده أخيرا إلى فقدان الثقة في كل شيء اجمع الناس على الثقة فيه فارتقى من عدم الإيمان بالحسيات إلى عدم الإيمان بالعقليات الأولية ودام على هذه الحال قريبا من شهرين كان فيهما (على مذهب السفسطة بحكم الحال لا بحكم المنطق والمقال) حتى شفاه الله تعالى من ذلك المرض فرجعت الضروريات العقلية معقولة موثوقا بها لديه على أمن ويقين ومن هنا بدأ طريقه الفكري بدراسة مذاهب المتكلمين والباطنية والصوفية والفلاسفة جريا وراء البحث عن الحقيقة التي إن شذت عن هؤلاء كما يقول (فلا يبقى في درك الحق مطمع)[٣] .

---

(١) الغزالي : المنقذ من الضلال ص ١٠ ، ١١ .

(٢) راجع عن المكتبة ببغداد ابن الجوزي : المنتظم ص ٩ ص ٤٢-٤٣ أثناء ترجمته لمحمد بن هلال الملقب بغرس النعمـــة رقم الترجمة ٦١ وفيات سنة ٤٨٠ — وراجع ص ٦٥ ، ١٦ من نفس المرجع وفيات سنة ٤٨٥ رقم الترجمة ١٠٣ ; وراجع السبكي طبقات الشافعية جـ ٤ ص ٢٩ أثناء ترجمته ليعقوب بن سليمان الأسفرايني ، وراجع عن مكتبة نيسابور : السبكي : طبقات الشافعية جـ ٤ ص ٢٢٣ ، ٢٢٤ أثناء ترجمته لسليمان بن ناصر : بن مهران والدكتورة فوقية حسين محمود : الجويني ص ٤٠ .

(٣) الغزالي : المنقذ ص ١٠ إلى ص ١٣ .

وبعد أربع سنوات قضاهن فى التأليف والتدريس والدراسة آثر اعتزال المدرسة جريا وراء استكمال الجانب العملى من الدراسة الصوفية تاركا وراءه من الأثر والسمعة ماجعل الناس يرتبكون فى استنباط أسباب العزلة فظن من بعد عن العراق أن ذلك كان لاستشعار عن جهة الولاة وأما من قرب من الولاة وكان يشاهد إلحاحهم فى التعلق به والانكباب عليه وإعراضه عنهم وعن الالتفات إلى قولهم فكانوا يقولون هذا أمر سماوى وليس له من سبب إلا عين أصابت أهل الإسلام وزمرة أهل العلم[١] .

وفى عزلته الدراسية قضى قريبا من سنتين بالشام يتعبد فى منارة مسجد دمشق[٢] وفى زاوية الشيخ نصر المقدسى بالجامع الأموى التى

(١) الغزالى : المنقذ ص ٣٥ إلى ص ٣٨ .

(٢) هكذا ذكر الغزالى فى المنقذ ص ٣٨ ويوافقه فى ذلك اليافعى المتوفى سنة (٨٦٨ هـ) مرآة الجنان وعبرة اليقظان فى معرفة العبر من حوادث الزمن وقد دحض المؤلف الروايات التى لا توافق ما فى المنقذ ويوافقه أيضاً أبو الفداء تاريخ أبو الفدا جـ ٢ ص ٢٠٨ وابن العماد : شذرات الذهب جـ ٣ حوادث ٤٨٨ هـ وهناك روايات أخرى مخالفة فى عدد السنوات وفى ترتيب الرحلات إذ يقدمون الحج على سفره للشام راجع رواية عبد الغفار الفارسى (٤٥١ — ٥٢٩ هـ) التى نقلها السبكى فى الطبقات وابن الجوزى : المنتظم وياقوت المتوفى سنة ٦٢٦ هـ فى معجم البلدان مادة طوس وابن خلكان المتوفى سنة ٦٨١ هـ فى وفيات الأعيان والعينى : عقد الجمان مخطوط مادة وفيات سنة ٥٠٥ هـ .

عـ فانا بعد بالزاوية أو المدرسة الغزالية نسبة إليه[١] ثم واصل عزلته ببيت المقدس ولما تحركت فيه داعية الحج[٢] صحب فيما يقال كلا من اسماعيل بن عبد الملك الحاكمى الطوسى (توفى سنة ٥٢٩)[٣] وإبراهيم ابن المطهر الشباك الجرجانى (المقتول ٥١٣هـ)[٤] كما صحب من قبل إلى الشام الفقيه نصر بن أدهم[٥] .

ثم بعد أداء فريضة الحج وزيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم جذبته الهمم ودعوات بناته إلى الوطن فرجع إليه وكان قضى فى عزلته تلك مقدار عشر سنين كانت تشوش عليه فيها حوادث الزمان ومهمات العيال ، إلا أنه بالرغم من ذلك خرج بالنتيجة الدراسية التى طمع فيها ورغب فى تحصيلها يقول : (فانكشفت لى فى أثناء هذه الخلوات أمور لايمكن إحصاؤها واستقصاؤها والقدر الذى أذكره لينتفع به أنى علمت يقينا أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة وأن سيرتهم أحسن السير وطريقهم أصوب الطرق وأخلاقهم أزكى الأخلاق بل لو جمع عقل العقلاء وحكمة الحكماء وعلم الواقفين على أسرار الشرع من

---

(١) السبكى : طبقات الشافعية جـ ٤ ص١٠٤ والغزالى : المنقذ ص ٣٨ .

(٢) السبكى : طبقات الشافعية جـ ٤ ص ٢٠٤ - ٢٠٥ .

(٣) السبكى : طبقات الشافعية جـ ٤ ص ٢٠٠ .

(٤) الغزالى : المنقذ ص ٢٨ — ٢٩ .

(٥) الذهبى (٥٧٣ — ٧٤٨) سير أعلام النبلاء مخطوط وقد حققه أخيراً الدكتور صلاح المنجد .

العلماء ليغيروا شيئاً من سيرهم واخلاقهم ويبدلوه بما هو خير منه لم يجدوا إليه سبيلا[١] .

وفى عام ٤٩٩هـ ألح عليه الوزير فخر الدين بن نظام الملك (المقتول سنة ٤٨٥هـ) أن يعود إلى التدريس فقبل بعد توقف غير أنه لما كان قلبه متعلقا بالحقيقة التى عثر عليها فى الطريق الصوفى آثر بعد قليل اعتزال المدرسة والانصراف إلى العزلة خاصة وقد كان الجو الذى يدرس فيه ماوثا بمكائد الفقهاء وفتنهم وتحرشهم[٢] .

وهناك فى وطنه وبالقرب من منزله ابتنى خانقاه للصوفية ومدرسة للمشتغلين بالعلم ولزم الانقطاع ووظف أوقاته على وظائف الخير بحيث لا تمضى لحظة منها إلا فى طاعة من التلاوة والتدريس والنظر على الأخص فى الأحاديث التى كان قد عيب بنقص فيها وأدام الصيام والتهجد وأعطى اهتماما خاصا لمجالسة أهل القلوب إلى أن انتقل إلى رحمة الله تعالى فى سنة ٥٠٥ هـ .

---

(١) الغزالى : المنقذ ص ٣٩ .

(٢) ابن العماد : شذرات الذهب جـ ٤ ص١٠ إلى ١٣ نشر مكتبة المقدس سنة ١٣٥٠ هـ والسبكى : طبقات الشافعية جـ ٤ ص ١٠٨ والغزالى : المنقذ من الضلال ص ٤٩ .

ثقافة الغزالى

ثقافة الغزالى فرع من ثقافات متعددة فيها :

(ا) العنصر الإسلامى الذى يتمثل فى القرآن والحديث وآراء الصحابة والفقهاء .

(ب) العنصر اليونانى المتمثل فى الثورة الفلسفية التى هزت الفكر الإسلامى هزا عنيفاً كانت ضحاياه من المسلمين أكثر من ضحاياه فى غيرهم .

(حـ) العنصر الهندى وقد أحدث دوياً وسط الأفكار الصوفية جعل ضعفاءهم يتصورون ماانتهوا إليه من قرب لله فناء روحياً فيه طائفة الحلول وطائفة الاتحاد وطائفة الوصول .(١)

(د) العنصر الفارسى الذى لعب دوره لافى العقائد الشيعية المتطرفة فحسب بل العقائد السنية حيث اضطر الغزالى وغيره(٢) أن يدخلوا البحث فى الإمامة ضمن عقائد التوحيد مع أنها مسألة سياسية بحتة كما يقول بن خلدون (٣) .

(هـ) العنصر الشخصى الذى هضم كل الثقافات وتمثلها فى آراء

---

(١) الغزالى : المنقذ ص ٣٩ .

(٢) من مثل القاضى أبو الحسن عبد الجبار توفى سنة ٤١٥ هـ فى كتابه المغنى فى أبواب العدل والتوحيد حيث خصص القسم الأول والثانى من الجزء العشرين للإمامة طبع الدار المصرية للتأليف والترجمة .

(٣) ابن خلدون : المقدمة .

جديدة فيها الأصالة والطرافة[١] كما فيها المجـــــاراة والترديد لآراء الأقدمين[٢] الأمر الذى جعل ابن العربى (المتوفى سنة ٥٤٣ هـ) يقول : شيخنا أبو حامد بلع الفلاسفة وأراد أن يتقيأهم فما استطاع [٣] .

الغزالى إذن دائرة معارف حية ، كان فيها ما أرضى الأقدمين واستوجب حمدهم وما أرضى المعاصرين واستوجب ثناءهم . لقد كان مفهوما لمعاصريه فى القرن الخامس الهجرى كما هو مفهوم أيضاً لمعاصرينا فى القرن الرابع عشر الهجرى، بل إن آراءه تشبه إلى حد كبير آراء أبرز فلاسفة الغرب من الأوربيين والأمريكيين ، يقول البروفسير واط : (Watt) .

His Outlook, too , is closer than that of many Muslims to the out Look of modern Europe anb Amrica,so that he is easly comperhensible to us (٤)

---

(١) الذهبى : سير أعلام النبـــلاء مخطوط يحققه الآن الدكتور صلاح الدين المنجد وقد نشر العثمان ترجمة الغزالى من المخطوطة فى كتاب سيرة الغزالى فراجع ما ذكره مما يؤيد ما ذهبت إليه فى ص ٧٧ وصفحة ١١٠ وراجع السبكى : طبقات الشافعية الكبرى جـ ٤ ص ١٢٣ ، ص ١٠٧ ، ص ١٣٤ .

(٢) العثمان : سيرة الغزالى ص ١١٠ نقلا عن الذهبى والسبكى : طبقات الشافعية الكبرى جـ ٤ ص ١٢٣ .

(٣) الذهبى : سير أعلام النبلاء مخطوط بدار الكتب المصرية وقد نشر العثمان ترجمة الغزالى منه فى كتابه سيرة الغزالى راجع النص فى صفحة ٧٠ .

(٤) Wats Muslim Intelectual P. V. II

لقد أحدثت أفكاره دويا فى المجتمع الإسلامى انقسم الناس حوله إلى [١] :

(ا) معجب أعماه حب الغزالى وأصمه فطفق يرسل عليه وعلى كتبه كلمات الإعجاب ويطلق ألفاظ المدح من مثل :

١ — لو كان نبى بعد محمد لكان الغزالى ، لو كان الغزالى نبياً لكانت معجزته الإحياء .

٢ — كاد الإحياء أن يكون قرآنا [٢] .

٣ — من أراد طريق الله وطريق رسول الله وطريق العارفين بالله وطريق العلماء بالله أهل الظاهر والباطن فعليه بمطالعة كتب الغزالى خصوصاً إحياء علوم الدين فهو البحر المحيط [٣] .

٤ — ومن مثل ماقاله الفقيه إسماعيل بن محمد الحضرمى اليمنى حين سئل عن تصانيف الغزالى : محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم سيد الأنبياء ومحمد بن إدريس الشافعى سيد الأئمة ومحمد بن محمد الغزالى سيد المصنفين .

٥ — ومن مثل ماوصف به الحافظ الإمام الفقيه أبو الفضل العراقى كتاب الإحياء حين قال إنه من أجل كتب الإسلام فى معرفة الحلال والحرام [٤] .

---

(١) أشار إلى هذا الانقسام المازرى : انظر سيرة الغزالى ص ٧٩

(٢) العيدروس : تعريف الأحياء بفضائل الإحياء ص ٧ طبع القاهرة ١٣٨٧ — ١٩٦٨ .

(٣) نفسه ص ٨ . (٤) نفسه ص ٥ .

٦ — ومن مثل ماقاله الشيخ أبو محمد الكارونى : لو محيت جميع العلوم لاستخرجت من الإحياء[١] .

٧ — ومن مثل ماقاله الشيخ عبد الله العيدروس لو بعث الله الموتى لما أوصوا الأحياء إلا بما فى الإحياء[٢] .

٨ — ومن مثل ماروى عن الشيخ على ابن أبى بكر بن الشيخ عبد الرحمن السقاف — قال : لو قلب الإحياء كافر لأسلم[٣] .

٩ — ومن مثل ماجاء عن الشيخ على المذكور حين قال شعراً :

كتاب جليل لم يصنف قبله
ولا بعده مثل له فى الطرائق[٤]

وقيل عن الغزالى أيضا :

١٠ ـ حجة الإسلام والمسلمين وإمام أئمة الدين لم تر العيون مثله لسانا وبيانا ومنطقا وخاطراً وذكاء وطبعا[٥] صار أنظر أهل زمانه وأوحد أقرانه فى أيام إمام الحرمين[٦] .

---

(١) نفسه ص ٧ . (٢) نفسه ص ٧ .
(٣) نفسه ص ٨ .
(٤) العيدروس : تعريف الأحياء ص ٩ ويشرح لفظ الكافر بقوله : المراد بالكافر هنا فيما يظهر الجاهل بعيوب نفسه المحجوب عن إدراك الحق. ص ٩ . (٥) نفسه ص ١٠ .
(٦) العثمان سيرة الغزالى نقلا عن كلام عبد الغافر بن إسماعيل الفارسى (المتوفى عام ٢٢٩ المنشور فى طبقات الشافعية) .

١١ — صاحب التصانيف التى ملأت الأرض طولا وعرضا[1]

١٢ — مضى وأعظم مفقود فجعت به من لا نظير له فى الخلق يخلفه[2]

١٣ — أعجوبة الزمان : زين الدين[3]

١٤ — امام الفقهاء على الاطلاق وربانى الآفاق باتفاق ومجتهد زمانه وعين أوانه[4] .

١٥ — وأثنى على الغزالى الإمام محمد بن على المازرى الصقلى فقال : هو بالفقه أعرف منه بأصوله .

وأحال بعض الغزاليين هذا الإعجاب إلى عمل فحفظوا عن ظهر قلب بعض كتبه[5] أو كادوا[6] وتسموا بأسمائها[7] وكتبوها بماء الذهب[8] .

---

(١) ياقوت الحموى : معجم البلدان مادة طوس .

(٢) من شعر محمد بن أحمد الابيوردى المتوفى مسموما سنة ٥٠٧ هـ راجع معجم البلدان مادة طوس نقل نفس البيت المذكور ابن خلكان ٦٨١ هـ فى كتاب وفيات الأعيان .

(٣) من كلام شمس الدين أبو عبـــد الله محمد بن أحمد التركمانى الدمشقى (٥٧٣ — ٧٤٨) فى كتابه سير أعلام النبلاء .

(٤) نفسه نقلا عن ابن النجار راجع سيرة الغزالى ص ٧٦ .

(٥) الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٤٤٠ .

(٦) طاشكبرى زادة : مفتاح السعادة جـ ٢ ص ٥٠ — ٥١ .

(٧) شذرات الذهب جـ ٥ ص ١٤٤ — ١٤٥ ، ٣٦٨ — ٣٦٩ .

(٨) الدرر الكامنة جـ ١ ص ١٠ رقم ١٩ ، جـ ١ ص ٢٤٣ رقم ٦٢٦ جـ ٤ ص ٢٤٣ رقم ٦٥٢ والسبكى طبقات الشافعية الكبرى جـ ٥ ـ الصفحات ٧٥ ، ١٢٩ ، ١٣٠ .

واعتبروها مقياسا للعلم والثقافة[1] وتراسل بها بعض الأدباء فى نثرهم وشعرهم وبالغ آخرون فتعبدوا بقراءة كتاب الإحياء وقسموه ثلاثين جزءا ليقرءوه كالقرآن فى رمضان .

(ب) ناقم كان لا يفتأ يقلل من مكانة الغزالى ويحقر من شأن ثقافته مصورا إياه بصورة الكافر الملحد تارة[2] وبصورة الجاهل الغبى تارة أخرى[3] سالبا منه كل فضيلة مسندا إليه كل رذيلة ومن أمثلة ذلك ما قاله :

١ ـ أبو بكر محمد بن الوليد الأندلسى الفقيه المالكى المتوفى عام ٥٢٠ هـ شحن أبو حامد الإحياء بالكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا أعلم كتابا على بسيط الأرض أكثر كذبا منه[4] .

٢ — محمد بن الوليد الطرطوشى : فأما ما ذكرت من أبى حامد فقد رأيته وكلمته فرأيته جليلا من أهل العلم واجتمع فيه العقل والفهم ومارس العلوم طول عمره وفاق على ذلك معظم زمانه ثم بدا له العدول عن طريق العلماء ودخل فى غمار العمال ثم تصرف وهجر العلوم وأهلها ودخل فى علوم الخواطر وأرباب القلوب ووساوس الشيطان

---

(١) العيدروس : تعريف الأحياء ص ٧ .

(٢) مثل ابن الجوزى وابن رشد راجع المنتظم مادة وفيات ٥٠٥ هـ وتهافت الفلاسفة لابن رشد .

(٣) ابن رشد : التهافت .

(٤) سيرة الغزالى ص ٧٥ نقلا عن سير أعلام النبلاء الذهبى .

ثم شابها بآراء الفلاسفة ورموز الحلاج ، وجعل يطعن على الفقهاء والمتكلمين ، ولقد كاد أن ينسلخ من الدين فلما عمل الإحياء عمد يتكلم فى علوم الاحوال ورموز الصوفية وكان غير أنيس بها ولا خبير بمعرفتها ، فسقط على أم رأسه وشحن كتابه بالموضوعات[١] .

٣ — محمد بن على المازرى الصقلى : وفى الإحياء من الواهيات كثير[٢]

٤ — محمد بن على المازرى عن الغزالى أيضا (حقيق أن لا يوثق بما روى)[٣]

٥ — وقال أبو الفرج ابن الجوزى المتوفى عام ٥٩٧ : صنف أبو حامد الإحياء وملأه بالأحاديث الباطلة ولم يعلم بطلانها وتكلم عن الكشف وخرج على قانون الفقه[٤]

(ج) منصف أعطى ما للغزالى للغزالى وما لغيره لغيره وقليل ما هم .

ويبدو لى أنه من المناسب ونحن بصدد الحديث عن ثقافة الغزالى أن نقسم مراحل ثقافته إلى أقسام متميزة :

الأولى : مرحلة ما قبل اتصاله بالجوينى وفى هذه المرحلة تتلمذ على الصوفى الذى كان وصيا عليه ثم على أحمد بن محمد أبو حامد الرازكانى

---

(١) سيرة الغزالى ص ٧٨ نقلا عن سير أعلام النبلاء للذهبى .

(٢) نفسه ص ٨٠ .

(٣) سيرة الغزالى ص ٨٠ نقلا عن سير أعلام النبلاء للذهبى .

(٤) نفسه ص ٨١ .

بطوس ثم على الإمام الشيخ الاسماعيلي بجرجان (المتوفى سنة ٤٨٧ هـ)
ونرجح أنه قد ألم بطرق التصوف إن لم يكن إلماما نظريا فعلى الأقل إلماما عمليا كان يتمثل فى سلوك هذا الصوفى الذى كان الغزالى على صلة وثيقة به وقد يكون درس معه إلى جانب ذلك بعض المعلومات الاولية عن الفنون المتفشية فى عمره كالفقه والكلام بجانب القرآن والحديث الذين هما زاد كل مسلم وإن اختلف القدر الذى يحصله كل مسلم من هذين الأصلين .

وقد واصل دراسة الفقه أو ابتدأه عند انتقاله إلى معلمه الجديد الرانكانى ، وقد كان الرانكانى شافعى المذهب مبرزا ... فى كثير من العلوم .(١)

ولما كان الرنكانى يشارك الصوفى الاول فى الاهتمام بالجانب العملى من العبادة والجنوح إلى الناحية الصوفية فقد يكون درس الغزالى طرفا من التصوف إن لم يكن نظريا فعمليا فى سلوكه فيما نرجح غير أن الغزالى حتى بداية دراسته عند الرانكانى لم يكن جادا فى الدراسة إذ كان القوت يشغل باله ويحتل قدرا كبيرا من تفكيره ، تلمس ذلك من تاريخه وفى عبارته التى دور بها حاله أخيرا إذ يقول (طلبنا العلم لغير

(١) الذهبى سير أعلام النبلاء مخطوط بدار الكتب المصرية وقد نقل منه النص العثمان : سيرة الغزالى ص ٧٦ وراجع ما نقله السبكى فى طبقات الشافعية عن ابن الملقن مخطوط بدار الكتب المصرية والنص هنا منقول من سيرة الغزالى للعثمان ص ١٤٣ .

الله فأبى أن يكون إلا لله، على أننا لا نعارض بالطبع فى أن تكون ثمة بوادر رغبة علمية بدأت تشق طريقها إلى قلبه فى النهاية غير أن الصفة الغالبة عليه فى الاول كانت لا تزال تحصيل القوت قبل تحصيل العلم .

ولكنه ما أن ابتدأ الدراسة عند أبى نصر حتى بدأ حب العلم أو على الأصح الرغبة الجادة فيه تشغل باله ، خاصة وقد اطمأن إلى وفرة القوت ولم يعد التفكير فيه ، وقد توفر له ، يشغله عن التفكير فى غيره .

ويبدو أن مادرسه عند هذا الأستاذ كان أكثر بكثير مما درسه عند أساتذته السابقين بدليل أن استيعاب ماحصله وحفظه استغرق منه ثلاث سنوات كاملة على الرغم من ذكائه وقدرته على التحصيل الكثير فى الظرف الوجيز ، كما يعلم ذلك من دراسته للفلسفة فى سنتين بالرغم من عدم تفرغه لها.

وقد يكون الغزالى درس فى هذه الفترة إلى جانب التصوف والفقه شيئاً على علم الكلام وقد يكون سمع عرضا بحيل الباطنية وأساليبهم كما قد يكون سمع ببعض الفلاسفة وقصص المعجبين بهم والناقمين عليهم غير أن إلمامه بكل ذلك ومعرفته الجادة بتفاصيل العلوم وفوائد المذاهب لما تكن قد بدأت .

مرحلة دراسته على الجوينى :

فى هذه المرحلة تفتقت على الغزالى معالم جديدة لم يكن له بها عهد فقد درس علم الكلام وخبر أساليب رجاله وعرف حججهم ومطاعنهم على الغير كما عرف عن طريق الحجج والمطاعن بعض أفكار الفلاسفة .

وقد ساعده إلى حد كبير عاملان هامان فى هذه المرحلة :

(ا) عامل الحرية الفكرية الواسعة والنفور من التقليد الذى لمسه من أستاذه[١] .

(ب) وفرة الكتب فى المدرسة النظامية التى كانت تضم أصنافاً من الفنون وأنواعاً من الكتب[٢] لانشك فى أن الغزالى قد اطلع على بعضها إن لم يكن عليها كلها .

فى هذه المرحلة درس الغزالى عن وعى ما كتبه الجوينى من آراء فيها ماينافض صراحة نصوص القرآن[٣] ولا يتفق مع تعاليم الإسلام اتفاقه مع آراء الفلاسفة[٤] كما قد درس ماله من آراء معتدلة فى كتبه الأخرى[٥] وإليك بعضاً من الفنون والكتب التى نرجح أنه درسها على الجوينى مما يساعد على تكوين فكرة عن مدى ثقافة الغزالى .

١ — أصول الفقه : درس الغزالى أصول الفقه فى كتب للجوينى منها :

---

(١) السبكى : طبقات الشافعية .

(٢) فوقية حسن محمود : الجوينى ص ٥٠ والسبكى : الطبقات ج ٤ ص ٢٢٣ — ٢٢٤ .

(٣) راجع ما ذكره السبكى فى الطبقات ج ٣ ص ٢٦٦ نقلا عن كتاب البرهان للجوينى .

(٤) راجع ملخص آراء الفلاسفة فى كتاب محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين .

(٥) من مثل الشامل وغيره راجع السبكى : الطبقات ج ٣ ص ٢٦١ إلى ص ٢٨٢ .

(ا) البرهان فى أصول الفقه، وهذا الكتاب من مفتخرات الشافعية قد تعرض فيه صاحبه لمسائل فلسفية كفّره عليها البعض [١] إذ صرح بتسفيه عقول من يعتقد أن الله تعالى عالم بما لا يتناهى على التفصيل كما خالف فيه بمثل هذا وبغيره آراء الأشاعرة والشافعية قاطبة وانتقد آراء الإمام مالك فى مسألة الاستصلاح والمصالح المرسلة وغيرها الأمر الذى سبب حرجا للشافعية غير أنهم لما لم يمكنهم تأويل كلام إمامهم الجوينى اعتبروا الكتاب لغزاً وسماه السبكى لغز الأمة قال : لما فيه من مصاعب الأمور وأنه لا تخلو مسألة عن أشكال [٢] وعلى كل فالكتاب كما يستفاد من مقدمته الاجتهاد والافتاء وممهدا لكتاب آخر يقع مصنفا برأسه وتتمة لموضوع المقدمة [٣] .

(ب) كتاب المجتهدين وهو يتناول تصويب المجتهدين ويبين أن النظر واجب بالشرع ومن لا يلجأ إلى النظر لن يصل إلى درجة اليقين فى المعتقدات إلا إذا كان طريقه القلب وهذا الطريق لا يسلكه من شغل نفسه بمهام الحياة فالأوفق للمتقين ألا يشغلوا أنفسهم عن النظر فى الاعتقاد

---

(١) من مثل الذهبى : وربما المازرى راجع السبكى : طبقات الشافعية جـ ٣ ص ٢٦١ إلى ص ٢٨٢ .

(٢) السبكى : طبقات الشافعية جـ ٣ ص ٢٦١ إلى ص ٢٨٢ .

(٣) فوقية حسين محمود : الجوينى ص ٦٢ وراجع مخطوطات الكتاب بدار الكتب بالقاهرة رقم (٧١٤ أصول فقه) وهى مصورة فوتوغرافيا عن نسخة مخطوطة بالمكتبة البدرية (المدرسة المدبولية بدمياط) وراجع مخطوطة مكتبة الازهر رقم ٩١٣ أصول الفقه .

وإلا خاب ظنهم وضلوا السبيل [1] .

(ج) الورقات: وهو يقع فى تسع ورقات ومنها استمد الاسم إلا أنه فيما يبدو كان عظيم الفائدة واسع الانتشار كما يستبان ذلك من الشروح المختلفة التى قام بها بعض الفارسيين والعراقيين والمصريين [2] .

(د) مغيث الخلق فى اختيار الأحق : تناول فيه قواعد الأحكام وبين الأدلة على تفاصيل الحلال والحرام وقد قسم كلامه إلى سبعة أقسام بحيث جاء الكلام فى القواعد محكما ينتهى بالباحث إلى مراعاة الإنصاف وضرورة مجانبة التعسف فى تقرير ما يشغل الأذهان من مسائل [3] .

٢ — مصنفات فى أصول الدين: درس الغزالى أصول الدين فى كتب للجوينى منها :

(ا) الإرشاد إلى قواطع الأدلة فى أصول الاعتقاد : وهو من أهم مصنفات الجوينى وأشهرها وقد تناول فيه المعتقدات الدينية محاولا إيجاد البراهين لها لتساير التطور الفكرى للمسلمين ، وقد بدأ حديثه فى الكتاب بإثبات حدوث العالم وتعرض للجوهر والعرض وأثبت أنه لا يجوز الوجود من مادة قديمة كما قال الملاحدة يعنى حكماء اليونان وإنما يكون الوجود من العدم وهى فكرةساير فيها غيره من المتكلمين ثم تكلم

( ) فوقية حسين محمود : الجوينى ص ٦٤ وراجع المخطوطة بمعهد إحياء المخطوطات القديمة بجامعة الدول العربية رقم ٢/١٢٣٧ فيلم .

(٢) فوقية حسين محمود : الجوينى ص ٦٥ — ٦٦ وراجع الورقات .

(٣) فوقية حسين : الجوينى ص ٦٦ .

عن الرسالة والنبوة والمعجزة والكرامة وعنى باثبات نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم كما تكلم عن جواز إرسال الرسل عامة وتعرض للامامة وأثبت أنها كانت لدى المسلمين اختيارية وتتم بالإجماع [١] .

(ب) الشامل فى أصول الدين: وقد تناول الجوينى فيه دراسة (الشىء) من وجهة نظر أهل السنة فقرر أن الشىء هو الموجود لا المعلوم كما يقول المعتزلة لأن المعلوم قد يكون معدوماً، وتعرض للجواهر والأعراض ودحض إثبات حوادث لا أول لها رادا بذلك على الطبائعيين والثنويه (أصحاب مذهب النور والظلمة) ورد على النصارى فيما يتعلق بتسميتهم الله جوهرا وتدرع اللاهوت بالناسوت، كما تعرض بالمثل لآراء اليعقوبية والنسطورية ثم واجه الدهريين فنقض حججهم وقرر حججه [٢]

(ج) غياث الأمم فى التياث الظلم: وهو يدور حول الإمامة عارضا وجهة نظر أهل السنة فيها [٣] .

---

(١) الدكتورة فوقية حسين محمود : الجوينى ص ٦٦ إلى ص ٨٠ وراجع الإرشاد لإمام الحرمين طبع بمطبعة السعادة بمصر ١٩٥٠ م .

(٢) الدكتورة فوقية حسين : الجوينى ص ٨١ إلى ص ٨٥ وراجع الجزء الأول منه الكتاب الذى نشره المستشرق كلوبفور وراجع أيضا النسخة المصورة عن نسخة الآستانة للجزء الأول المحفوظة بدار الكتب بالقاهرة رقم (١٢٩٠) علم الكلام .

(٣) فوقية حسين محمود : الجوينى ص ٨٥ وراجع مخطوطة دار الكتب العربية رقم ٨ (اجتماع تيمور) ومخطوطة بلدية الإسكندرية رقم ٩٢ تاريخ.

(د) شفاء الغليل فى بيان ماوقع فى التوراة والإنجيل من التبديل: ويدور فيه الكلام من مؤلفه الجوينى على اثبات أن نصوص الانجيل اشتملت على ذكر سيدنا محمد (سيد المرسلين) قبل أن تمسها يد التحريف وينالها مانالها من تبديل والكتاب حتى الآن مايزال مخطوطا [١] .

(ه) العقيدة النظامية وهو جزء من مصنف كبير لإمام الحرمين أسماه (العقيدة النظامية فى الأركان الإسلامية) ويتميز هذا الجزء بأنه يحوى آراء إمام الحرمين فى أصول التوحيد أى تلك التى لم يتقيد فيها بطرق السابقين عليه من أهل الحق إذ يطالعنا بآراء لم يسبق اليها وبعرض طريف لبعض الاراء السابقة .

وفى هذ الرسالة حاول أن يبين حقيقة علم الكلام ليوصل بها الدارس إلى إثبات وجود الله دون التعرف بحقيقته سبحانه إذ حقيقته — كما يقول — لاتنكشف للعبد إلا عن طريق القلب [٢] .

(و) لمع الأدلة فى قواعد عقائد أهل السنة والجماعة وهو كتاب للجوينى ساير فيه طرق أهل السنة والجماعة فى الاستدلال وقد تعرض

---

(١) فوقية حسين : الجوينى ص ٨٥ وراجع مخطوطتى أيا صوفيا برقم (٢٢٤٦) ورقم (٢٢٤٧) ومصورة معهد إحياء المخطوطات القديمة بجامعة الدول العربية برقم (١٥٩) فيلم .

(٢) فوقية حسين محمود : الجوينى ص ٨٦ — ٨٧ وراجع العقيدة النظامية المشار إليها، تصحيح وتعليق الكوثرى طبع سنة ١٩٤٨، وأيضا راجع نفس العقيدة نشر المستشرق كلوبفر .

فى ايجاز لأهم المسائل الكلامية التى تعرض لأمثالها فى كتابه السابق الارشاد [١] .

(ز) مسائل الامام عبد الحق وأجوبتها : وهى إحدى مؤلفات الجوينى تعرض فيها لحدوث العالم ولذهول بعض العوام عن وجه الدلالة على صدق الانبياء ، وتعرض أيضاً للمنجمين والمعجزات وأثبت قدرة الله على كل شىء [٢]

(ح) التلخيص فى الأصول :وقد أشار اليه امام الحرمين فى كتابه (الشامل فى أصول الدين) [٣] .

٣ — مصنفات فى الفقه: درس الغزالى الفقه فى كتب للجوينى منها :

(ا) نهاية المطلب فى رواية المذهب : وهو مصنف ضخم للجوينى يتكون من عدة أجزاء تصل فى بعض النسخ إلى اثنين وعشرين جزءا تناول فيه مختلف مسائل الفقه مبينا أصولها وأحكامها مع عناية بآراء المخالفين فى المذهب والحرص على تفنيد آرائهم ونقد أقوالهم [٤] .

(ب) مناظرة فى الاجتهاد فى القبلة : كتبها الجوينى ردا على سؤال من الشيخ أبى اسحق الشيرازى عمن تبين الخطأ بعد اجتهاده فى تعيين

---

(١) الدكتورة فوقية حسين : الجوينى ص ٨٧ وقد طبع كتاب اللمع بإشراف الدكتورة فوقية .

(٢) الدكتورة فوقية حسين : الجوينى ص ٨٨ .

(٣) الدكتورة فوقية حسين الجوينى : ص ٨٨ .

(٤) الدكتورة فوقية حسين : الجوينى ص ٨٨ إلى ٩١ .

القبلة فأثبت الجوينى فى رده عليه بطلان الصلاة ولزوم الاعادة[١] .

(ج) مناظرة فى زواج البكر : أثبت فيها الجوينى ضرورة عدم إجبار البكرة البالغة على الزواج بدون أذنها[٢] .

(د) السلسلة فى معرفة القولين والوجهين على مذهب الشافعى : وهى كغيرها من معظم كتبه ورسائله ما تزال مخطوطة[٣] .

(ه) رسالة فى الفقه تناول فيها — على الرغم من صغرها — الكثير من المسائل الفقهية[٤] .

(و) رسالة فى التقليد الاجتهاد : تناول فيها بالدراسة بعض المسائل التى تخص الاجتهاد وأبان وجهة نظره فى التقليد[٥] .

٤ — مصنفات فى الخلاف : درس الغزالى فى علم الخلاف مصنفات للجوينى منها :

(أ) الدرة المضية فيما وقع من خلاف بين الشافعية والحنفية[٦] .

(ب) غنية المسترشدين فى الخلاف[٧] .

٥ — مصنفات فى الجدل : درس الغزالى فى الجدل مصنفات للجوينى منها :

---

(١) فوقية حسين : الجوينى ص ٩١ والسبكى الطبقات ج ٣ ص ٢٧٥ .

(٢) فوقية حسين : الجوينى ص ٩١ والسبكى الطبقات ج ٣ ص ٢٧٨ .

(٣) فوقية حسين : الجوينى ص ٩١ .

(٤) فوقية حسين : الجوينى ص ٩١ — ٩٢ .

(٥) فوقية حسين : الجوينى ص ٩٢ .

(٦) فوقية حسين : الجوينى ص ٩٢ .

(٧) فوقية حسين : الجوينى ص ٩٢ .

(أ) كتاب الكافية فى الجدل : قرر فيه أهمية الإلمام بمختلف المصطلحات العلمية الجارية بين أهل الزمان ليتيسر للباحث الدخول فى العلم ومحاولة اصطحابه كما قرر بشأن الجدل ما يحمد منه وما يذم[١] .

٦ — مصنفات عامة : عرف الغزالى للجوينى منها :

(أ) ديوان فى الخطب المنبرية[٢] .

(ب) قصيدة يحث بها ابنه على النهوض وطلب المعالى[٣] .

(ج) كتاب النفس : ورد ذكره فى سياق أقوال الجوينى فى كتابه العقيدة النظامية حيث قال : وقد جمعت كتابا فى النفس سميته كتاب النفس وهو يشتمل على قريب من ألف صفحة[٤] .

هذه بعض مؤلفات الجوينى حرصنا على :

(أ) التطويل فيها .

(ب) والالماع للمكتبة النظامية بنيسابور[٥] .

لأنهما يكونان بعض ثقافة الغزالى فى مرحلة دراسته على الجوينى وهى مرحلة هامة فى تاريخ الغزالى كان لها أثرها الفعال فى بقية المراحل

---

(١) فوقية حسين : الجوينى ص ٩٢ إلى ص ١١٢ .

(٢) فوقية حسين : الجوينى ص ١١٤ .

(٣) فوقية حسين : الجوينى ص ١١٣ .

(٤) الدكتورة فوقية حسين : الجوينى ص ١١٣ وراجع أيضا العقيدة النظامية ص ٥٩ .

(٥) راجع عنها السبكى : طبقات الشافعية الكبرى ج ٤ ص ٢٢٢ - ٢٢٤ أثناء الترجمة لسلطان بن ناصر بن ميمون بن مهران المتوفى سنة ٥١١ أو ٥١٢ هـ .

التى اجتازها كما كان لها أثرها فى الانطلاقة الفكرية للغزالى والغضبة الدينية التى قام بها فى مناهضة الفلاسفة والحشوية والباطنية كما كان لها وللمرحلة السابقة لها بعض الأثر فى التجاء الغزالى لحظيرة المتصوفة .

وقد لا نستبعد أن يضاف إلى ذلك آثار أخلاقية سيئة تخلص منها الغزالى أخيرا وانتقدها بمرارة هى :

(أ) الحسد .

(ب) الرياء .

(ج) العجب[1].

والأمثلة على ذلك كثيرة قد يطول البحث أكثر فأكثر إذا تتبعناها .

(ج) مرحلة التثقيف الشخصى وبناء الشهرة .

وهى المرحلة الحاسمة فى تاريخ الغزالى حيث أكسبته الشهرة وأضفت على شخصيته ومؤلفاته لونا خاصا من التقدير انعكس فى ألفاظ المدح والاطراء التى أسبغه عليها البعض فى مختلف القرون .

فى هذه المرحلة تكونت شخصية الغزالى وسمت مكانته وصار له كما لغيره أنصار يتعصبون له إلى درجة التضحية وخصوم يتعصبون عليه إلى درجة قد تعرضهم لنقد الناقدين أو سلاح الأنصار المتعصبين .

غير أن الذى يهمنى تقريره هنا هو أن مجرد اهتمام الناس بالانسان مدحا أو ذما دليل على عظمته وسمو مكانته وإلا لأهملوه كما أهملوا

---

(١) الغزالى : بداية الهداية ، وراجع بداية الهداية المنتقط من الكفاية شرح البداية للفاكهى ص ١٠٤ .

غيره من ملايين العلماء الذين عرفتهم الانسانية فى تاريخها ، ولقد صدق الغزالى حين قال : (أودع الناس واتقاهم وأعلمهم من لا ينظر الناس كلهم إليه بعين واحدة بل بعضهم بعين الرضا وبعضهم بعين السخط وعين الرضا عن كل عيب كليلة)[١] .

للمرحلة إذن خطورتها البالغة بالنسبة للغزالى بل بالنسبة لتاريخ الفكر الاسلامى أجمع وأكاد أجزم بأن الغزالى لو لم يمر بهذه المرحلة لما نبه ذكره وارتفع شأنه ، بل قد لا يكون له ذكر على الاطلاق فهناك مئات الطلاب ممن درسوا على الجوينى والرازكانى والاسماعيلى أهملهم التاريخ كما أن هناك آلافا من الناس ممن مروا على المراحل الآتية لم يفدهم مرورهم عليها ذكرا أو نبوغا أو نفاذ كلمة أو ذيوع صيت أو سيرورة إنتاج.

على أن المرحلة فى نظرى ذات جانبين هامين لا يمكن فصل بعضهما عن بعض إذ كلاهما يتمم الآخر ويكمله لأنهما بمثابة حلقة واحدة لا يدرى أين طرفاها ، أو قل قد يدرى الطرف الهام منها غير أن أهمية هذا الطرف لا تكسبه نقيراً أو قطيرا إذا ما انفصل عن الطرف الآخر .

الطرف الأول : اتصاله بالوزير نظام الملك :

كل المصادر تتفق فى أن الغزالى بعد أن درس على الجوينى أم صوب الوزير نظام الملك إذ كان (مجلسه عامرا بالفقهاء وأئمة المسلمين وأهل

---

(١) العثمان : سيرة الغزالى ص ١٧٥ والزبيدى إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين .

التدين)[١] فهم على حد تعبيره (أركان الاسلام وهم جمال الدنيا والآخرة — يقول — لو أجلست كلا منهم على رأسى لاستقلات لهم ذلك)[٢] .

ويذكر الأصفهانى (وفى أيامه نشأ الناس أولاد نجباء وتوفر على تهذيب الأنباء الآباء ليحضروهم فى مجلسه ويحظو ابتقريبه فانه كان يرشح كل واحد لمنصب يصلح له بمقدار ما يرى فيه من الرشد والفضل ، ومن وجد فى بلدة قد تميز وتبحر فى العلم بنى له مدرسة ووقف عليها وقفا وجعل فيها دار كتب .. ولم يزل بابه مجمع الفضلاء وملجأ العلماء وكان ناقدا بصيرا ينقب أحوال كل منهم ويسأل عن تصرفاته وخبرته ومعرفته فمن تفرس فيه صلاحية الولاية ولاه ومن رآه مستحقا لرفع قدره رفعه وأعلاه ومن رأى الانتفاع بعلمه أغناه ورتب له ما يكفيه من جدواه حتى ينقطع إلى إفادة العلم ونشره وتدريس الفضل وذكره ، وربما سيره إلى إقليم خال من العلم ليحلى به عاطله ويحيى به حقه ويميت باطله .

ثم إنه لما وفر الأموال على الخزينة والعسكر جعل فيها لأرباب العلوم وأصحاب الحقوق حقوقا لا تؤخر ورسوما لا تتغير وصير إحسان السلطان بين أهل العلم ميراثا يأخذونه بقدر الفرائض ويأمنون بها من

---

(١) ابن الجوزى : المنتظم ، الصفحات ٦٤ إلى ٦٨ وفيات سنة ٤٨٥ ه رقم الترجمة ١٠٣ والسبكى : الطبقات ج ٤ .

(٢) ابن الجوزى : المنتظم ، الصفحات ٦٤ إلى ٦٨ وفيات رقم ٤٨٠ ه قدم الترجمة ١٠٣ .

النوائب والعوارض[١] .

وهناك فى مجلس نظام الملك بعسكر نيسابور[٢] وجد الغزالى من الوزير إقبالا فائقا وعناية شديدة لما أنسه فيه من التبحر فى العلوم ،غير أن الطريق إلى المجد والشهرة لما كان ينقصه الطرف الثانى المكمل لحلقة المجد وهو التدريس بنظامية بغداد كما سيأتى — كان على الغزالى — وقد طمع فيه — أن يعبر إليه عن طريق سبر محصوله العلمى من خلال احتكاكه بالعلماء وهو أمر خطير لا نشك أن الغزالى قد أعطاه حقه من الاعتبار فأضاف إلى محصـ ـلمى السابق محصولا جديداً وغزيراً يضمن به التفوق ويحقق به الطموح خاصة ومجالسو نظام الملك يكونون صفوة العلماء وخيرتهم والمبرزين فيهم .. قد يكون هذا المحصول العلمى الجديد الثر عن طريق استعارة كتب من مكتبة نظامية نيسابور بحكم صلاته بها وقت أن كان طالبا تحت اشراف الجوينى ، وقد يكون عن طريق الاطلاع على ما تضمنه مكتبة نظام الملك التى لا نشك فى أنها كانت زاخرة بالكتب فى مختلف الفنون وقد يكون ذلك بمختلف السبل التى كانت مهيأة له وقت ذاك .

على كل نرى أن الغزالى قد تسلح للمعركة واستعد لها استعدادا

(١) الفتح بن على بن محمد البغدادى الأصفهانى : تواريخ آل سلجوق : وهذا الجزء مشتمل على كتاب زبدة النصرة ونخبة العصرة من إنشاء الإمام عماد الدين محمد بن محمد بن حامد الأصفهانى طبع أبريل سنة ١٨٨٦م ص ٥٥ إلى ص ٥٩ .

(٢) راجع عن عسكر نيسابور ياقوت : معجم البلدان ج ٣ ص ٦٧٧ .

يبلغه الهدف وذلك بدراسته أكثر فأكثر لكل ماتقع عليه عينه من كتب قد تفيده فى الملاحم العلمية التى يدخل معمعتها كل يوم . ولما كان الغزالى ذكيا بطبعه فقد أكسبته الدراسة الشخصية بجانب دراساته الماضية على الأساتذة التفوق الباهر على الاقران والانتصار الكامل عليهم فى كل المجالات التى خاضها معهم فى سبيل الهدف ولم يكن ثمت بد أمام العلماء وقد بهرهم الغزالى إلا أن يسلموا له الأمامية ويقروا له بالفضل ويوافقوا على تلقيبه بمختلف الالقاب التى أطلقها عليه نظام الملك وغيره [(١)] كما لم يكن أمام الوزير نظام الملك نفسه بد وقد أدهشه علم الغزالى وتنوعه أن يبعثه إلى بغداد بمرسوم يعينه به أستاذا لأشهر مدرسة فيها وفى العالم الاسلامى أجمع وهى المدرسة النظامية (كمل بناؤها فى ذى القعدة سنة ٤٥٩ هـ)القائمة على نشر العقائد السنيه [(٢)] فى مقابلة الأزهر (كمل بناؤه فى يوم ٩ رمضان سنة ٣٦١ هـ) القائم على

---

(١) السبكى : الطبقات جـ ٤ ص ١٠٣ ، ونفس الجزء ص ١٠٧ نقلا عن كلام عبد الغافر الفارسى المعاصر للغزالى وابن عساكر : تبيين كذب المفترى ص ٢٩٢ وابن خلكان : وفيات الاعيان والذهبى : سير أعلام النبلاء مخطوط واليافعى اليمانى مرآة الجنان وعبرة اليقظان والعينى : عقد الجمان مخطوط ، والزبيدى . اتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين(نقلا عن السبكى).

(٢) ابتدى فى بناء المدرسة فى سنة ٤٥٧ هـ وتمت عمارتها فى ذى القعدة سنة ٤٥٩ هـ وجددت سنة ٥٠٤ هـ راجع ابن خلدون العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ ٦ ص ٤٦٩ وابن جبير : رحلة ابن جبير ص ٩٢٩ أثناء حديثه عن مدينة السلام بغداد، وزكى مبارك : الأخلاق عند الغزالى ص ١٩ .

نشر العقائد الشيعية[1] .

الطرف الثانى : المدرسة النظاميه ببغداد .

ودخل الغزالى بغداد أستاذاً للمدرسة النظاميه فى جمادى الأولى سنة ٤٨٤ ﻫ مبتدئا بذلك الجانب الثانى المكمل لحلقة المجد .

وكانت المدرسة النظامية قد كمل بناؤها فى ذى القعدة سنة ٤٥٩ ﻫ ولما يزل الغزالى فى التاسعة من عمره وتعاقب على التدريس فيها قبله كل من :

١ — أبو نصر[2] بن الصباغ (ولد سنة ٤٠٠ ﻫ وتوفى سنة ٤٧٧ﻫ). كان فقيه العراق وكان يضاهى أبا إسحق الشيرازى ويقدم عليه فى معرفة المذهب وغيره ... من تصانيفه (الشامل) و(الكامل) وتذكرة العالم والطريق السالم) ولى تدريس النظامية ببغداد قبل أبى إسحاق عشرين يوما بدأها بيوم السبت ١٠ ذو القعدة سنة ٤٥٩ وذلك تغطية للفراغ الذى أحدثه تخلفه عن التدريس فيها فى الموعد المحدد[3]

---

(١) شرع فى بنائه السبت لست بقين من جمادى الأولى ٣٥٩ ﻫ وكمل بناؤه لتسع خلون من شهر رمضان سنة ٣٦١ ﻫ راجع المقريزى . الخطط ج ٢ ص ٢٧٣ وزكى مبارك : الأخلاق عند الغزالى ص ١٩ .

(٢) ورد فى العبر لابن خلدون ج ٦ ص ٤٦٩ (أبو منصور) بدلا عن أبى نصر ولعله خطأ لأن كل المراجع تجمع على (أبى نصر) وحتى ابن خلدون نفسه فى ج ٥ ص ١٣ من نفس كتاب العبر يذكره باسم (أبى نصر).

(٣) ابن الجوزى : المنتظم ج ٩ ص ١٢ ، ١٣ رقم الترجمة ٤؛ وراجع أيضاً ابن العماد : شذرات الذهب ج ٣ ص ٣٠٧ وابن خلدون : العبر ج ٥ ص ١٣ ، ج ٦ ص ٤٦٩ والسيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٦ .

٢ — أبو إسحاق الشـــيرازى (ابراهيم بن على بن يوسف الفيروزابادى) صاحب التنبيه والمهذب فى الفقه ، بنى له نظام الملك المدرسة النظامية على شاطئ دجلة[١] فلما سمع أن فى مكانها غصبا امتنع فلم يزل العميد أبو سعيد يرفق به تنفيذا لأوامر نظام الملك حتى قبل الدروس بها وحضر يوم السبت مستهل ذى الحجة سنة ٤٥٩ هـ وألقى الدرس بها إلى أن توفى فى سنة ٤٧٦هـ[٢] .

٣ — عبد الرحمن بن مأمون بن على أبو سعد المتولى (ولد سنة ٤٢٦هـ — ٤٧٨هـ) ولى التدريس سنة ٤٧٦هـ بعد الشيرازى فدرس الأصول مدة ثم قال الفروع أسلم[٣] غير أن نظام الملك لم يرتض تعيينه فعزل[٤]

٤ — الإمام أبو نصر بن الصباغ عين هـــذه المرة أستاذا رسميا للمدرسة واستمر مدرسا بها إلى أن توفى بـكرة الثلاثاء ثالث عشر جمادى الأولى سنة ٤٧٧ هـ[٥]

---

(١) السبكى طبقات الشافعية جـ ٣ ص ٨٨ فما بعدها .

(٢) السيوطى حسن المحاضرة جـ ٢ ص ١٨٤ إلى ١٨٦ وابن خلدون : العبر حـ ٥ ص ١٣ .

(٣) ابن الجوزى : المنتظم حـ ٩ ص ١٨ رقم الترجمة ٢١

(٤) ابن خلدون : العبر جـ ٥ ص ١٣ تحت عنوان مقتل الوزير نظام الملك ويلاحظ أن الاسم مسجل فى هذا الجزء أبو سعيد بدلا من أبى سعد كما فى ابن الجـوزى : المنتظم جـ ٩ ص ١٨ رقم الترجمة ٢١ المنتظم ١٢ ، ١٣ رقم الترجمة ١٤ وراجع أيضا العبر ابن خلدون جـ ٥ ص ١٣

(٥) ابن الجوزى : جـ ٩ ص ١٢ ، ١٣ رقم الترجمة ١٤ وراجع أيضاً العبر : ابن خلدون جـ ٥ ص ١٣

٥ — الشريف الطوى أبو القاسم الدبوسى تولى التدريس بالنظامية بعد وفاة ابن الصباغ فى يوم الثلاثاء ثالث عشر جمادى الأولى سنة ٤٧٧ هـ إلى أن توفى هو نفسه فى سنة ٤٨٢ هـ [١]

٦ — أبو عبدالله الطبرى (الحسين بن على بن الحسين) [٢] الفقيه الشافعى (ولد سنة ٤١٨ هـ وتوفى سنة ٤٩٨ هـ) كان محدث مكة ونزيلها جرت له فتن وخطوب مع هياج ابن عبيد وأهل السنة بمكة وكان عارفا بالمذهب الأشعرى قاله فى العبر وقال ابن قاضى شهبة ثم لازم الشيخ أبا إسحاق الشيرازى حتى برع فى المذهب والخلاف وصار من عظماء أصحابه كان يدعى إمام الحرمين لأنه جاور بمكة نحوا من ثلاثين سنة يدرس ويفتى ويسمع .. ألف كتاب العـــدة من خمسة أجزاء ضخمة [٣] شرحا على إبانة الفورانى.. درس بالنظامية منفردا ثم لما عين القاضى للتدريس اشترك فيها معه فكان يدرس كل منهما يوما [٤] إلى جمادى الأولى سنة ٤٨٤ هـ

---

(١) ابن خلدون : العبر جـ ٥ ص ١٣ تحت عنوان مقتل الوزير نظام الملك.

(٢) هكذا فى ابن العماد : شذرات الذهب جـ ٣ ص ٤٠٨ وابن عساكر : تبيين كذب المفترى ص ٢٧٧ ، ٢٨٨ وفى السبكى « الحسن بن على » راجع السبكى : طبقات الشافعية الكبرى جـ ٣ ص ١٥٢ ويلاحظ أن ابن خلدون قال « أبو عبد الله الطبرى » ولم يتعرض لاسمه ، العبر جـ ٥ ص ١٣

(٣) ابن العماد : شذرات الذهب جـ ٣ ص ٤٠٨ وابن خلدون العبر وابن قاضى شهبة : تراجم رجال القرنين .

(٤) السبكى : طبقات الشافعية جـ ٣ ص ١٥٢

٧ ـ القاضى عبد الوهاب الشيرازى[١] ولى تدريس النظامية على الرغم من وجود الطبرى بها وحلا للاشكال[٢] اتفقنا على التناوب فى التدريس يوما بيوم إلى أن عزلا معا فى جمادى الأولى سنة ٤٨٤ ﻫ ليتيحا المجال لخلفهما الإمام الغزالى[٣] بتوقيع من نظام الملك[٤]

الغزالى والمدرسة النظامية :ـ

٨ ـ ثم جاء الغزالى استاذا ثامنا للمدرسة فى تاريخها[٥]. وبوصوله إليها واستقراره بها بتوقيع نظام الملك (ولد سنة ٤٠٨ ﻫ وتوفى ٤٨٥ ﻫ) تحقق له آخر مطمع من مطامعه إن كان لمطامع الإنسان حدود إذ كان منصب الأستاذية بنظامية بغداد فى نظر الناس آنذاك ، هو المنصب الأعلى فى الدين[٦] .

وبدأ الغزالى التدريس لمختلف العلوم الدينية ما عدا الحديث والنحو

---

(١) هكذا فى ابن خلدون « العبر » ج ٥ ص ٣ ؛ وفى السبكى « أبو محمد القاضى » راجع الطبقات ج ٣ ص ١٥٢

(٢) هنالك نص أنسيت مرجعه يشرح اتفاقهما على حل الإشكال وأظنه فى طبقات السبكى .

(٣) ابن خلدون : العبر ج ٥ ص ٣ ، والسبكى : طبقات الشافعية ج ٣ ص ١٥٣ .

(٤) بعد أن هجر الغزالى المدرسة فى سنة ٤٨٨ ﻫ قام أخوه أبو الفتوح أحمد بالتدريس فيها فترة ثم أعيد تعيين الطبرى أستاذاً للمدرسة . راجع السبكى طبقات الشافعية ج ٣ ص ١٥٢ ، ج ٤ ص ١٠٤ وراجع عن تعيين أبو الفتوح المراجع الآتية : ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٤ ـ ٣٥ .

(٥) راجع تكملة الجزء الثانى من النجوم الزاهرة لابن تغرى ص ٢٨٧ .

(٦) الغزالى : المنقذ من الضلال ص ٣٧ ، ٣٨ .

فيما نرجح إذ كانت بضاعته فيهما مزجاة[١] أو قل كان له فى ذلك رأى خاص جعله يعرض عن التعمق فيهما مقتصرا فى النحو على ما يتعلق بالكتاب والسنة وفى الحديث على تصحيح نسخة رجل خبير بعلم متن الحديث[٢] وفى المدرسة عنى الغزالى بصفة خاصة بتدريس الفقه وعلى الأخص الفقه الشافعى إذ المدرسة ـ كما يقول ابن الجوزى ـ وقف على أصحاب الشافعى أصلا وفرعا وكذلك الأملاك الموقوفة عليها شرط فيها أن تكون على أصحاب الشافعى أصلا وفرعا وكذلك شرط فى المدرس الذى يكون بها والواعظ الذى يعظ بها ومتولى الكتب ، وشرط فيها أن يكون فيها مقرىء يقرىء القرآن ونحوى يدرس العربية وفرض لكل قسطا من الوقف[٣] .

ولم يلبث الغزالى فترة يسيرة بالمدرسة حتى أعجب بتدريسه الجميع من مؤيدين له فى المذهب ومخالفين وانضم إلى حلقته أو على الأصح حضر دروسه ، الأئمة الكبار لا من مذهبه فحسب بل من أصحاب المذاهب الأخرى كابن عقيل وأبى الخطاب الحنبليين رغم ما بين الحنبلية والأشعرية من بغض. يقول ابن الجوزى (وتعجبوا من كلامه واعتقدوه فائدة ونقلوه فى مصنفاتهم)[٤].

---

(١) الزبيدى : أتحاف السادة المتقين بشرح أسرار علوم الدين وراجع ابن الملقن طبقات الشافعية مخطوط .نقل النص العثمان فى سيرة الغزالى ص ٤٤ ؛

(٢) الغزالى : إحياء علوم الدين ص ٣٦ وراجع رسالة أيها الولد للغزالى ص ١٢٧ من مجموعة القصور العوالى من رسائل الامام الغزالى .

(٣) ابن الجوزى : المنتظم جـ ٩ ص ٦٥ — ٦٦ وفيات سنة ٤٨٥ هـ أثناء ترجمته لنظام الملك رقم ١ ترجمة ١٠٣ .

(٤) ابن الجوزى : المنتظم مادة وفيات سنة ٥٠٥ .

غير أن الغزالى ، وهو يلحظ هذا الاعجاب، خشى ما قد يعقبه من تبعات، لمن يريد المحافظة عليه فهو :

١ — ليس من مواطنى بغداد، وعلماء بغداد — آنذاك — أكثر الناس حسدا لما يحظى به الأجانب من عناية وتقدير[١].

٢ — عين للتدريس بعد عزل كل من الطبرى وعبد الوهاب الشيرازى ولا يستبعد هو ان يحصل له من العزل ما حصل لذيك أو على الاقل يفاجأ بتعيين أستاذ جديد يضطر لمقاسمته فى التدريس ، يوما له ويوما للآخر كما فعل بالطبرى حين عين الشيرازى .

٣ — كان صغير السن بالنسبة للطبرى إذ كان عمره ٣٤ عاما تقريبا[٢] بينما عمر الطبرى ٦٦ عاما وعلى الرغم من أن هذا ليس صغرا بالمعنى المفهوم إلا أنه قد يتخذ تكأة لمن يحاول اختلاق الاسباب ، ادرك الغزالى كل ذلك وربما غير ذلك ، ولكن لما لم يكن أمامه مخرج يطمئن به على موقفه غير أن يتداوى بنفس الداء أو بعبارة أخرى يحرص على المزيد فى العلم الذى يخشى عاقبة أمره فيه . فقد قسم أوقاته على[٣] :

١ — تدريس العلوم الشرعية لطلاب نظامية بغداد الذين بلغ عددهم أحيانا ثلاثمائة طالب .

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٩١ .

(٢) فى المذهبى (وسنه نحو الثلاثين) راجع سير أعلام النبلاء مخطوط

(٣) الغزالى : المنقذ ص ١٨ .

٢ ـ التصنيف في مختلف الفنون وبمختلف اللغات [١] كسبا للقراء غير المتتلمذين عليه وتعزيزا للثقة به من المتتلمذين عليه [٢]

٣ — التثقيف الشخصي بالاطلاع على كل ما كتبته الأقلام الإسلامية في الماضي والحاضر وباللغتين العربية والفارسية في ميدان الفلسفة خاصة [٣] والميادين الأخرى عامة وذلك عن طريق اشباع فهمه العلمي بما تضمه مكتبة النظامية [٤] من ثروة علمية نادرة بلغ من إعجاب الناس بها وإقبالهم عليها أن استغنوا بها عن غيرها واستكفوا بمخزوناتها عن مخزونات ماسواها يحكى ابن الجوزي أن محمد بن هلال الملقب بغرس النعمة (توفى سنة ٤٨٠هـ) ابتنى بشارع ابن أبي عوف دار كتب ووقف فيها نحوا من أربعمائة مجلد في فنون العلم ورتب بها خازنا يقال له ابن الاقساس العلوي [٥] وتكرر العلماء إليها سنين كثيرة مالم تزل له أجرة فصرف الخازن وحل الوقف من الكتب وباعها .

---

(١) ألف معظم كتبه بالعربية وله بالفارسية كيمياء السعادة وخطابا لمؤيد الملك راجع مؤلفات الغزالي لعبد الرحمن بدوي .

(٢) المنقذ من الضلال ص ١٨ . (٣) الغزالي : المنقذ ص ١٨ .

(٤) راجع عن المكتبة النظامية ببغداد كلا من : ابن الجوزي : المنتظم جـ ٩ الصفحات ٢، ٤٢، ٣٤، ٦٥، ٦١ وفيات سنة ٤٨هـ، ٤٨٠هـ والسبكي : طبقات الشافعية الكبرى جـ ٤ ص ٢٩ .

(٥) وبهذه المناسبة نذكر أن : يعقوب بن سليمان بن داؤود أبو يوسف الاسفرايني كان خازناً لكتب المدرسة النظامية ببغداد في فترة من الفترات (راجع السبكي طبقات الشافعية الكبرى جـ ٤ ص ٢٩ .

قال هبة الله بن المبارك السقطى ـ فأنكرت ذلك عليه فقال قد استغنى عنها بدار الكتب النظامية ، قال المصنف[١] بيع الكتب بعد وقفها محظور فقال : قد صرفت ثمنها فى الصدقات[٢] .

بهذه الثقافة الدراسية وبتلك المصنفات الكثيرة البديعة السهلة الأسلوب، وبذلك العدد الضخم من الطلاب ركز الغزالى أقدامه فى المدرسة ونشر شهرته عبر البلاد .

وفى خلال هذه الفترة التى قضاها الغزالى بالمدرسة والتى لاتتجاوز فى مجموعها أربع سنوات (أعجب الخلق حسن كلامه ، وكمال فضله ، وفصاحة لسانه، ونكته الدقيقة ،وإشاراته اللطيفة، وأحبوه وصار عندهم عظيم الجاه ، زائد الحشمة عالى المرتبة ، مسموع الكلمة، مشهور الاسم تضرب به الأمثال وتشد إليه الرحال[٣] ثم تطور الأعجاب حتى فاق بذلك الأكابر والأمراء ودار الخلافة[٤] ، وصار إذا ماصدر فتوى نفذتها طوعا أو كرها دار الخلافة ودار السلطنة ، معرضين عما قد يجد بعضهم من ثغرات فى الفتاوى الأخر قد تحقق لهم مطامعهم وترد لهم كرامتهم .. يحكى المؤرخون أنه فى سنة ٤٨٥ وهى السنة الثانية للغزالى

---

(١) سياق الحديث يفيد أن المعنى المصنف هنا هو هبة الله بن المبارك السقطى المشار إليه فى النص .

(٢) ابن الجوزى : المنتظم جـ ٩ ص ٤٢ ، ٤٣ رقم الترجمة ٦١ وفيات سنة ٤٨٠ هـ .

(٣) السبكى طبقات الشافعية جـ ٤ ص ١٠٤ .

(٤) السبكى نقلا عن عبد الغافر الفارسى راجع الطبقات ص ١٠٧ .

بالنظامية توفى السلطان ملكشاه فأخفت زوجه (تركان خاتون الجلالية) الخبر وسارت بشلوه إلى أصبهان وأفاضت الأموال فى الأمراء والعساكر ودعتهم إلى بيعة ولدها محمود وهو ابن أربع سنين أو خمس سنين وعشرة أشهر[1] فاجابوا إلى ذلك وبايعوه وأرسلت إلى المقتدر فى الخطبة له فأجابها على أن يكون الأمير (انز) قائما بتدبير الملك ومجد الملك مشيرا وله النظر فى الأعمال والجباية فأبت الأم إلا أن يسند ذلك كله الى ابنها مع السلطنة فلم يجب الخليفة وقال هذا لايجيزه الشرع واستفتى الفقهاء فأفتى أبو حامد الغزالى وقال إن الشرع لايجيز ولاية أبنك وقال : المشطب بن محمد الحنفى يجوز مارامته الأم فغلب قول الغزالى وقبلت الأم الشرط[2] دون أن تتشبث برأى المشطب مع أنه فى صالحها وصالح ابنها . وفى هذا مافيه من تأكيد مااكتسبه الغزالى من تقدير واحترام ونفاذ رأى عند العام والخاص فى أثناء تلك المرحلة ، فإذا ماأضفت إليه غيره مما نقلناه عن بعض من ترجموا للغزالى أمكنك أن تتصور إلى أى حد نجح الغزالى فى الطرف الثانى الموحد لحلقة المجد.

(د) مرحلة الغزالى الدراسية (أو مرحلة التذوق والسلوك) :

بانتهاء مرحلة التثقيف الشخصى وبناء الشهرة انتهى الغزالى من دراسة أهم ما أنتجته الأفكار فى حقلى العلوم الشرعية والعقلية غير أنه

---

(١) ذكر الرقم الأول ابن خلدون فى العبر جـ ٥ ص ١٣ وذكر الرقم الثانى ابن الجوزى : المنتظم جـ ٩ ص ٦٢ ، ٦٣ .

(١) ابن خلدون : العبر جـ ٥ ص ١٣ وابن الجوزى : المنتظم جـ ٩ ص ٦٢ — ٦٣ وفيات سنة ٤٨٥ هـ .

بقى عليه وقد اطلع على كنه مقاصد المتصوفة فى الناحية العلمية ـ أن يتمم دراسته للتصوف بانتهاج سبيل الذوق والسلوك[١] وهو الجانب الهام من جوانب الدراسة الصوفية .

وهنا انتاب الغزالى القلق والاضطراب والضعف . أيقدم على سلوك هذا الجانب وأول مرحلة فيه لاتتم إلا بالإعراض عن الجاه والمال والهرب من الشواغل والعلائق[٢] بما فى ذلك المدرسة النظامية التى كانت ـ ماتزال إلى عهده منتهى طموح كل عالم باعتبارها المنصب الأعلى فى الدين[٣] ؟ أم يكتفى بما حصل عليه من هذا العلم عن طريق التعلم والسماع[٤] حتى لايفقد هذا الجاه العريض والشأن المنظوم الخالى عن التكدير والتنغيص ، والأمر المسلم الصافى عن منازعة الخصوم[٥] ؟ .

انتابت الغزالى هذه الحيرة وصار كلما صمم العزم على مواصلة الدراسة بالعزلة حله مرة أخرى[٦] تحت تأثير ظروف الاحترام والتقدير والتبجيل المحيطة به وبقى على ذلك ستة أشهر أولها رجب سنة ثمان وأربعمائة[٧] .

وأخيرا انتصر طريق الدراسة على طريق الجاه لابتأثير منه ولكن بأمر خارج عن حوله وقوته اضطر إلى التسليم به اضطرارا إذ أقفل الله لسانه حتى اعتقل عن التدريس[٨] وصار بحيث لو بقى على هذه الحالة

(١) الغزالى : المنقذ ص ٣٦ .
(٢) الغزالى : المنقذ ص ٣٦ .
(٣) الغزالى : المنقذ ص ٣٨ .
(٤) الغزالى : المنقذ : ٣٥ .
(٥) الغزالى : المنقذ : ٣٧ .
(٦) الغزالى : المنقذ ص ٣٦ .
(٧) الغزالى : المنقذ ص ٢٧ .
(٨) الغزالى : المنقذ ص ٣٧ .

للفظه الطلاب قبل أن يلفظه المسئولون ؛ إما بعزله أو بمضايقته بأستاذ جديد .

وعلى ذلك لم يكن أمام الغزالى بد من مواصلة الدراسة . وهكذا فعل .

وقد اكتشف أول ما اكتشف وهو يبدأ دراسته هذه أن كل ما درسه فى الماضى من علوم لا يساوى شيئاً بالنسبة لهذا العلم الجديد أو قل إنه يمثل فقط الدهليز بالنسبة لعلم الذوق والسلوك[1] .

فهو علم أول شروطه (تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى)[2] بقطعه عن كل العلائق التى تربطه بالدنيا من مال وأهل وولد ووطن وعلم وولاية وجاه وغيرها مع عدم انشغاله بذلك بحيث يصير قلبه فى حالة يستوى فيها وجود كل شىء وعدمه .

ثم يخلو بنفسه فى زاوية مع الاقتصار على الفرائض والرواتب ويجلس فارغ القلب مجموع الهم لا يفكر فيما سوى الله مع اجتهاده فى أن لا يفرق فكره بقراءة قرآن ولا بالتأمل فى تفسير ولا كتب حديث ولا غيره[3] إذ أن ذلك يلحقه بسالكى طريق الحواس المبنى على استفادة العلوم من التعليم — فى حين أن طريق الذوق والسلوك يعد السالك له للعلوم الإلهية بحيث يكون ما تحصل عليه فى النهاية من علوم الدنيا أضعاف أضعاف ما تحصل رفيقه الآخر من فنون العلوم[4] يقول الغزالى :

---

(١) الغزالى : المنقذ ص ٣٩ . (٢) الغزالى : المنقذ ص ٣٩ :

(٣) الغزالى : الاحياء ج ٣ ص ١٧ ، ١٧ .

(٤) الغزالى : الاحياء ج ٣ ص ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ .

(القلب له بابان باب إلى خارج وهو الحواس وباب إلى الملكوت من داخل القلب وهو باب الإلهام والنفث فى الروع والوحى فإذا أقربهما الإنسان لم يمكنه أن يحصر العلوم فى التعلم ومباشرة الأسباب المألوفة ، بل يجوز أن تكون المجاهدة سبيلا إليه[١] وهذا ما أقر به علماء الفقه وأن استوعروه واستبطئوا ثمرته[٢] .

فإذا ما فرغ المريد من أول شروط هذا العلم التى ذكرناها انتقل إلى مفتتحه الجارى منه مجرى التحريم من الصلاة[٣] وذلك بأن يجعل قلبه مستغرقاً بذكر الله مواظباً عليه[٤] مواظبة تؤول فى النهاية إلى أن يبقى معنى الذكر مجرداً فى قلبه حاضراً فيه كأنه لازم له لا يفارقه[٥] لامتزاجه منه باللحم والدم .

فإذا ما توصل إلى ذلك صار متعرضاً لنفحات الله التى منها العلم اللدنى — فيتكفل الله تعالى بتنوير قلبه بأنوار العلم ويفيض عليه الرحمة ويشرق فيه النور وينشرح منه الصدر[٦] وحينذاك يعلم يقينا — كما حصل للغزالى أخيراً — (أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة وأن سيرتهم أحسن السير وطريقهم أصوب الطرق وأخلاقهم أزكى الأخلاق بل لو جمع عقل العقلاء وحكمة الحكماء وعلم الواقفين على أسرار

---

(١) الغزالى . الاحياء حـ ٣ ص ٢٢ .

(٢) الغزالى : الاحياء حـ ٣ ص ١٧ .

(٣) الغزالى : المنقذ : ص ٣٩ .

(٤) الغزالى : المنقذ : ص ٣٩

(٥) الاحياء : حـ ٣ ص ١٧ .

(٦) الغزالى : الاحياء حـ ٣ ص ١٦ .

الشرع من العلماء ليغيروا شيئاً من سيرهم وأخلاقهم ويبدلوه بما هو خير منه لمجدوا إليه سبيلا؛ فان جميع حركاتهم وسكناتهم فى ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به[١]

على أن كل ذلك لا يمثل غير الباب من هذا العلم فما بالك إذن بالبقية التى يصل فيها القلب إلى درجة الفناء فى الله بالكلية فناء ينتهى الأمر فيه إلى قرب يكاد يتخيل منه طائفة الحلول وطائفة الوصول يقول الغزالى : وكل ذلك خطأ، بل الذى لابسته تلك الحالة لا ينبغى أن يزيد على أن يقول :

فكان ما كان مما لست أذكره   فظن خيراً ولا تسأل عن الخبر[٢]

إذن فهى — كما ترى — مرحلة من الثقافة والدراسة نجهلها وقد نتعجب منها ونسخر ونستهزىء باعتبارها هذياناً لا يقبله العقلاء[٣] ونحن فى ذلك معذورون لأننا كما يرى الغزالى لم نسلك إلا سبيل الحواس والحواس باب من أبواب القلب يؤدى إلى خارج — أما الباب الآخر المؤدى إلى الملكوت فهو باب الإلهام النابع من داخل القلب[٤] ولتوضيح ذلك يقول الغزالى (اعلم أن عجائب القلب خارجة عن مدركات الحواس لأن القلب أيضاً

---

(١) الغزالى : المنقذ : ص ٣٩ .
(٢) الغزالى : المنقذ ص ٣٩ — ٤٠ والمقصد الاسنى للغزالى .
(٣) الغزالى : المنقذ ص ٤٠ .
(٤) الغزالى : إحياء علوم الدين ح ٣ ص ١٦ ، ١٧ ، ٢٠ ، ٢٢ .

خارج عن إدراك الحس وما ليس مدركا بالحواس تضعف الافهام عن دركه إلا بمثال محسوس عن إدراك الحس ونحن نقرب ذلك إلى الافهام بما لو فرضنا حوضا محفوراً فى الأرض احتمل أن يساق إليه الماء من فوقه بأنهار تفتح فيه ويحتمل أن يحفر أسفل الحوض ويرفع عنه التراب إلى أن يقرب من مستقر الماء الصافى فينفجر الماء من أسفل الحوض ويكون ذلك الماء أصفى وأدوم وقد يكون أغزر وأكثر فذلك القلب بواسطة أنهار الحواس والاعتبار بالمشاهدات حتى يمتلىء علما ويمكن أن تسد هذه الأنهار بالخلوة والعزلة وغض البصر ويعمد إلى عمق القلب بتطهيره ورفع طبقات الحجب عنه حتى تنفجر ينابيع العلم من داخله فان قلت فكيف ينفجر العلم من ذات القلب وهو خال عنه فاعلم أن ا من عجائب أسرار القلب ولا يسمح بذكره فى علم المعاملة[١].

إذن فهو على أى حال نوع من الثقافة والدراسة حصله الغزالى أثناء عزلته الدراسية ولما كان الشرط فى مثل هذه الثقافة أن لا تنال عن تحصل ما صنفه المصنفون[٢] فليس أمامنا وقد جهلنا ذلك إلا نصدق الغزالى فى قوله :(وانكشفت لى فى أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن إحصا ا واستقصاؤها)[٣] وكل ما نعرفه عن ه ه المرحلة انه تفلسف فيها

(١) الغزالى : إحياء علوم الدين ج ٣ ص ١٧ ، ١٨ .

(٢) الغزالى : إحياء علوم الدين ج ٣ ص ١٦ .

(٣) الغزالى : المنقذ من الضلال ص ٣٩ .

على الشيخ أبى على الفارمذى[1] ، وقضى بها إحدى عشرة سنة بدأها فى ذى القعدة سنة ثمان وثمانين وأربعمائة بخروجه من بغداد وانتهى منها فى ذى القعدة سنة تسع وتسعين وأربعمائة[2] .

هـ ـ مرحلة ما بعد العراق :

إذا سلمنا ـ ولا أرى ما يمنع ـ بما جاء فى المرحلة السابقة من امكان استقاء المعلومات لا عن طريق الكتب والمصنفات أمكننا أن نقرر أن الغزالى وقد بدأ هذه المرحلة كانت حصيلته من الثقافة ذات شطرين هما :

١ ـ الشطر الأول : الثقافة الحسية وقد شرحناها فيما مضى .

٢ ـ الشطر الثانى : الثقافة الصوفية ونعنى بها هنا تلك الثقافة النابعة من باب الإلهام لا من باب الحس وهى ثقافة يعتز بها الغزالى ويفخر حين يقارنها بثقافته الحسية السابقة على مرحلة العزلة الدراسية ، يقول «وكيف يقاس الدوام الأبدى بدوام المتغير الفاسد وكذلك شدة الوصول فكيف يكون ما وصوله علاقة السطوح والأجسام بالقياس إلى ما وصوله بالسريان فى جوهر الشيء كأنه هو بلا انفصال إذ العقل والمعقول واحد أو قريب من الواحد»[3] ويوضح ذلك أكثر فى كتابه

(١) ابن الجوزى : المنتظم . وفيات سنة ٥٠٥ هـ ، والسبكى : طبقات الشافعية الكبرى .

(٢) الغزالى . المنقذ من الضلال ص ٤٩ .

(٣) الغزالى : معارج القدس القاهرة ١٩٢٧ .

مشكاة الأنوار فيقول موازناً بين عين البصر الحسية وعين الروح الإلهامية . « إن البصر لا يدرك ذاته ولكن الروح مدركة لذاتها والبصر لا يرى البعيد كما يرى القريب ولا يرى من وراء حجاب فى حين أن الروح تكشف عن حقائق الأشياء وتهتك عنها الحجاب، والبصر إنما يدرك الأشياء ما ظهر منها والروح تدرك كنهها وحقيقتها والبصر لا يرى إلا جزءاً يسيراً من الوجود فى حين أن مجال الروح هو الوجود بأسره[1] وعلى هذا فقد كان علم الغزالى فى هذه المرحلة أكثر وأغزر من علمه فى جميع المراحل السابقة .

---

(١) الغزالى مشكاة الأنوار ص ٥ .

الفصل الثانى

دور الغزالى فى علم الكلام

تمهيد :

تاريخ البحث والنقاش فى المسائل الكلامية ليس حديث العهد بالنسبة لعصر الغزالى — بل كان قديما قدم الإسلام نفسه فقد بدأ البحث فى مثل هذه المسائل أيام عهد الرسول صلى الله عليه وسلم فصرح قوم بالقدر وآخرون بالجبر وفريق ثالث بالتحسين والتقبيح العقليين .

وظهر — إلى جانب ذلك — من جادلوا فى ذات الله تفكرا فى جلاله وتصرفا فى أفعاله حتى منعهم الله وخوفهم بقوله تعالى : ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون فى الله وهو شديد المحال .

وانقضى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ولحق بالرفيق الأعلى سنة ١٠هـ — ٦٣٤م وفى عهد الحسن البصرى (توفى سنة ١١٠هـ — ٧٢٨م) أعاد القول بالقدر وإنكار أن يضاف الخير والشر إلى القدر كل من معبد الجهنى (توفى سنة ٨٠ هـ — ٦٩٩) وغيلان الدمشقى توفى ١٠٥ — ٧٢٣ م ويونس الأسوارى ونهج على منوالهم واصل بن عطاء الغزالى (٨٠ / ١٣١ هـ - ٦٩٩ / ٧٧٨م) غير أنه اعتزلهم بالقول بالمنزلة بين المنزلتين فسمى هو وأصحابه معتزلة .

ثم طالع بعد ذلك شيوخ المعتزلة كتب الفلاسفة حين نشرت أيام المأمون فخلطت مناهجها بمناهج الكلام وأفردتها فناً من فنون العلم

وسمتها باسم الكلام ؛ إما لأن أظهر مسألة تكلموا فيها وتقاولوا هى مسألة الكلام فسمى النوع باسمها وأما لمقابلتهم الفلاسفة فى تسميتهم فنا من فنون علمهم بالمنطق والمنطق والكلام متقابلان .

وكان أبو الهذيل العلاف شيخهم الأكبر (١٣٥ / ٢٢٦هـ — ٧٥٢ / ٨٤٠ م) وافق الفلاسفة فى أن البارى تعالى عالم بعلم وعلمه ذاته وقادر بقدره وقدرته ذاته كما أنه قال بمسائل فى الارادة وأفعال العباد والقدر ، والآجال ، والأرزاق .

وفى أيام المعتصم (استخلف سنة ٢١٨هـ — ٨٣٣م وتوفى ٢٢٧هـ — ٨٤١م) غلا ابراهيم بن سيار النظام (توفى ٢٣١هـ — ٨٤٥ م) فى تقرير مذاهب الفلاسفة منفرداً فى ذلك عن سلفه من محافظى الأمة وصحبه من المعتزلة .

ثم ظهر بشر بن المعتمر (توفى سنة ٢٢٦ هـ — ٨٤٠م) مناديا بالتولد والأفراط فيه والميل إلى الطبيعيين من الفلاسفة وتتلمذ له أبو موسى المرداد (توفى حوالى سنة ٢٢٦ هـ — ٨٤٠ م) وانفرد عنه بأبطال إعجاز القرآن من جهة الفصاحة والبلاغة وفى أيامه جرت أكثر التشديدات على السلف لقولهم بقدم القرآن .

وكانت قد ظهرت جماعة من المعتزلة متوسطين مثل ضرار بن عمر وحفص الفرد والحسين بن النجار من المتأخرين خالفوا الشيوخ فى مسائل ونبغ فيهم جهم بن صفوان (قتل سنة ١٢٤هـ — ٧٤١ م) فى أيام نصر بن سيار توفى ١٣١هـ وأظهر مقالته فى الجبر بترمذ فقتله سالم

ابن أحوز المازنى فى آخر ملك بنى أمية ١٣١ هـ وكانت بين المعتزلة وبين السلف فى كل زمان اختلافات فى الصفات وكان السلف يناظرونهم عليها لا على قانون كلامى بل على قول اقناعى ويسمون الصفاتية لاثباتهم صفات الله تعالى كمعان قائمة بذاته أو لتشبيههم صفات الله بصفات الخلق وكلهم يتعللون بظواهر القرآن والسنة[1] .

ولعل أبرز ما دار نقاش الصفاتية والمعتزلة حوله من المسائل هى :

١ ـ التوحيد ٢ ـ العدل ٣ ـ الوعد والوعيد ٤ ـ القول بالمنزلة بين المنزلتين ٥ ـ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

وهذه هى الأصول الخمسة التى بنى عليها المعتزلة مذهبهم وجادلوا الناس عليها، يقول الخياط : وليس أحد منهم يستحق اسم الاعتزال حتى يجمع القول بالأصول الخمسة . . فاذا كملت فيه هذه الخصال فهو معتزلى[2]

وكرد فعل لهذا التطرف من جانب المعتزلة انفصل أبو الحسن الأشعرى (توفى سنة ٣٢٤ هـ ـ ٩٣٥ م) عن حلقتهم إثر مناظرة دارت بينه وبين أستاذه الجبائى (ولد سنة ٢٣٥ هـ وتوفى سنة ٣٠٣ هـ) حول مسألة من مسائل الصلاح والأصلح ـ وكان أن نادى بالتوسط بين الطرق فنفى التشبيه وأثبت الصفات المعنوية وقصر التنزيه على ما قصره

---

(١) الشهرستانى : الملل والنحل .

(٢) الخياط : الانتصار ص ١٢٦ والمسعودى : مروج الذهب جـ ٢ ص ١٥ وأحمد أمين : ضحى الاسلام جـ ٣ ص ٢١ .

عليه السلف وقال باثبات السمع والبصر والكلام القائم بالنفس كما أوضح أن أمر الأمامة لا علاقة له بعقائد الإيمان وإنما هو قضية مصلحية مرتكزها الاجماع.

وكثر أتباع الشيخ أبى الحسن وتوسع مذهبه بعد أن انضم إليه كل الصفاتية أو السلف وصار اسمه علما على المدرسة الجديدة التى بدأت تشق طريقها فى ميدان الكلام حتى لقد عرفت باسم الأشاعرة بدلا عن الصفاتية أو السلف .

ولما كان رائد هذه المدرسة مساحا بكل أسلحة المعتزلة الجدلية فقد حاول تأسيس مذهبه على دعائم ثابتة لا تزعزعها حجج المعتزلة ولا يهزها فقدان ثقة السلف فيها فكان أن أيد مقالة السلف بمناهج كلامية وحجج منطقية ومسائل اقناعية كانت من جهة تطويرا لما سبقه عليه الكلابى والقلانسى والحارث المحاسبى (توفى سنة ٢٤٣هـ) ومن جهة أخرى توطيدا وترسيخاً لهذا المذهب الجديد الذى وصفه أحد اتباعه باللبن يخرج من الفرث والدم .

وتوفى أبو الحسن الأشعرى وكاد المعتزلة بعده يستعيدون مكانتهم العلمية تحت ظل دولة بنى أمية غير أن القاضى أبو بكر الباقلانى تصدى لهم ففند حججهم وأقام على انقاضها دعائم جديدة قوت من مدرسة سلفه الأشعرى .

ويعد الباقلانى هذا أحد أعمدة المذهب الأشعرى العظام إذ قام بمجهود جبار فى نصرة المذهب كان من نتائجها أن انتشر المذهب أكثر

من ذى قبل وبدأ اتباعه يخوضون المعارك بأسلحة بعضها من اختراع الباقلانى .

وكان ابرز ما قام به الباقلانى فى تهذيب الطريقة الأشعرية هو أن وضع لها المقدمات العقلية التى تتوقف عليها الأدلة والأنظار مثل اثبات الجوهر الفرد والخلاء وأن العرض لا يقوم بالعرض وأنه لا يبقى زمانين وامثال ذلك مما توقف عليه أدلتهم وجعل هذه القواعد تبعا للعقائد الايمانية فى وجوب اعتقادها لتوقف تلك الأدلة عليها كما قال بأن بطلان الدليل يؤذن ببطلان المدلول .

ولما كان الباقلانى حرا فى تفكيره فقد وافق الأشعرى فيما هداه إلى مثله اجتهاده وخالفه فيما لم ير فيه رأيه فكان أن قال بأن البقاء ليس وصفا لله تعالى زائدا على الذات كما نادى باثبات الحال الذى أنكره الأشعرى .

وأعقب الباقلانى إمام الحرمين الجوينى ولد ٤١٩هـ وتوفى ٤٧٨هـ — ١٠٨٥م وكان مثل سابقه يكره التقليد وينفر منه فكان من الطبيعى والحال هكذا أن لا يتقيد كثيرا بالأشعرى فيما لم ير فيه رأيه بل لقد اشتط به الفكر أبعد من ذلك نخالف اجماع متكلمى المسلمين ونادى كالفلاسفة بأن الله يعلم الكليات لا الجزئيات قائلا فى كتابه البرهان : تردد المتكلمون فى انحصار الأجناس كالألوان فقطع القاطعون بأنها متناهية فى الامكان كآحاد كل جنس وزعم أنها منحصرة وقال المقتصدون لاندرى أنها منحصرة ولم يبينوا مذهبهم على بصيرة وتحقيق

والذى أراه قطعا أنها منحصرة فإنها لو كانت غير منحصرة لتعلق العلم بآحاد على التفصيل وذلك مستحيل فإن استنكر الجهلة وشمخوا بآنافهم وقالوا البارى تعالى عالم بما لا يتناهى على التفصيل سفهنا عقولهم وأحلنا تقرير هذا الفن على أحكام الصفات وبالجملة فعلم الله إذا تعلق بجواهر لا نهاية لها فمعنى تعلقه بها استرساله عليهما من غير تعرض لتفصيل الآحاد مع نفى النهاية فان ما يحيل دخول مالا يتناهى فى الوجود يحيل وقوع تقريرات غير متناهية فى العلم والأجناس المختلفة التى فيها الكلام يستحيل استرسال الكلام عليها فإنها متباينة بالجواهر وتعلق العلم بها على التفصيل مع نفى النهاية محال ، وإذا لاحت الحقائق فليقل الأخرق بعدها ماشاء ، غير أن الجوينى لم يثبت على هذا الرأى إذ ما لبث أن نقضه فى كتبه الأخرى .

الثورة المنهجية :

وجاء الغزالى (ولد ٤٥٠ هـ — ١٠٥٨م) (توفى ٥٠٥ هـ) بعد الجوينى زعيما للمدرسة فهاله وهو يبدأ دراساته لعلم الكلام تلك السطحية فى التفكير التى اتسمت بها المدارس الفكرية [١] وهذا البعد الشاسع عن روح الدين [٣] وتعاليم الكتاب [٢] وأسلوب معالجته المسائل عامة والتوحيدية منها خاصة [٤] ورأى أنه من المناسب وقد تردى

---

(١) الغزالى . القسطاس المستقيم ص ٦٠ ، ٦٨ ، ٧٢ ، ٧٩

(٢) الغزالى : القسطاس ص ٨٠ (٣) الغزالى : القسطاس ص ٨٠

(٤) الغزالى : القسطاس ص ٦١ فما بعدها

الناس إلى هذا الدرك أن يردهم جميعاً إلى جادة الصواب وأن يهديهم سبيل القرآن ويعلمهم أسلوب النقاش والمجادلة[١] فالحق أحق أن يتبع سواء أجاء عن طريقه هو أو عن طريق غيره إذ لادخل للزمان فى ذلك وإلا لما صح للأشعرى مخالفة المعتزلة وقد سبقوه كما لادخل للفضل فى التفاوت فى الفضل والعلم وإلا فبأي ميزان ومكيال تقدردرجات الفضل والعلم[٢] حتى يصح تفضيل الغزالى على غيره أو غيره عليه على أن الحق لايعرف بالرجال وإنما إذا عرف الحق عرف أهله [٣] .

على هذا الأساس بدأ الغزالى دراساته النقدية لعلم الكلام ولما كان الغزالى مبرزاً فى كل علم، خاصة وفى كل ميدان اقتحمه، فقد اعتبرت كتبه مرجعاً أساسياً للباحثين فى ذلك العلم بل مالبث الناس أن تأثروا بها وأقبلوا على حفظها وتدوينها حتى بماء الذهب وظهرت مختلف الشروح لها والاختصارات لمضمونها تولى ذلك المؤيدون للغزالى والمناهضون له ؛ فابن الجوزى مثلا لم يكن أمامه بد وهو يرى إقبال الناس على كتاب الأحياء للغزالى أن يعكف ويضع ملخصاً له وكان الرأى السائد عند معظم الناس آنذاك أن كتب الغزالى تعتبر الباب للكتاب والسنة وعلى هذا فقد كان التقصير فى معرفتها

---

(١) الغزالى : قسطاس ص ١٠ فما بعدها

(٢) الغزالى : فيصل التفرقة ص ١٤٧ فما بعدها (من مجموعة القصور العوالى من رسائل الإمام الغزالى)

(٣) الدكتور فتح الله خليف : فخر الدين الرازى ص ١٣ نقلا عن مرآة الجنان لليافعى ص ٩ — ١٠

ودراستها يعتبر نقصاً يعاب عليه المثقف لافى المواطن التى عرفها الغزالى بل فى البلاد البعيدة التى لم يذهب إليها الغزالى أصلا كحضرموت — واليمن وما إلى ذلك .

أسس المدرسة الغزالية :

وهذا لم يكن تأثير الغزالى فى علم الكلام — وهو موضوع هذا الفصل — بأقل من تأثيره فى بقية العلوم الأخرى فلقد درس الغزالى علم الكلام دراسة جادة فحصله وعقله ، وطالع كتب المحققين فيه منهم وصنف فيه ما أراد أن يصنف ولكن ما أن وجده علماً وافياً بمقصود المتكلمين غير واف بمقصوده إنبرى لنقده وتوضيح مثالب منهجه مبيناً خطأ المتكلمين وبعدهم عن الطريق السوى والنهج القرآنى، واضعاً فى سبيل البناء أسساجديدة ومبادىء عامة دارت عليها أبحاث المعاصرين له والذين أعقبوه مما جعل لهذه المدرسة الغزالية صبغتها الخاصة التى تخالف صبغة المدارس الكلامية السابقة عليها وهأنذا ألخص هنا تلك الأسس التى اقتفتها مدرسة الغزالى :

للموازنة بين المعقول والمنقول :

١ — أن يوزن المعقول بالاسناد إلى المنقول ليكون القول منهما أسرع إلى القبول وذلك بأن يجعل المنقول أصلا والمعقول تابعاً ورديفا[1] وعلى ذلك.

فقد أنكر التسليم بمستحسنات العقول ورفض التعويل عليها لأنها

(١) الغزالى : القسطاس ص ٨٠ والرساله اللدنية ومدارج القدس ص ٥٠ — ٦١ وانظر مفتاح السعادة حـ ٢ ص ٢٠

تقود إلى مقايسة الخالق على الخلق كما أنها تنتج نتائج تشهد موازين القرآن بفسادها وضرب مثلا على ذلك :

(ا) بما يراه المعتزلة من وجوب الصلاح والأصلح على الله تعالى قائلا : لو كان الأصلح واجباً على الله تعالى لفعله ومعلوم أنه لم يفعله فدل على أنه غير واجب . وبعد ترديد لهذه القضية التى سبق عليهاقال : نعم لفعل الأصلح سر يستمد من معرفة سر الله تعالى فى القدر ولكن المعتزل لاينظر من ذلك الأصل فإنه لايطلع ببضاعة الكلام على ذلك السر فمن هذا خبط خبط عشواء واضطربت عليه الأراء[1] .

(ب) بما يراه المجسمة إذا قالوا إن الله تعالى جسم — قال الغزالى قلنا لم ؟ قالوا . لأنه فاعل صانع فكان جسما قياسا على سائر الصناع والفاعلين ،وبعد أن ناقشهم الغزالى وأنكر عليهم مايعتصمون به من إستقراء أو سبر أوصاف عباد فقرر فى يقين بأنه : بسبب الغفلة عن دقائق البحث خبط المتكلمون وكثر نزاعهم أوتمسكوا بالرأى والقياس وذلك لايفيد برد اليقين بل يصلح للاقيسة الفقهية الظنية ولإمالة قلوب العامة إلى صوب الصواب والحق فانه لايمتد فكرهم إلى الاحتمالات البعيدة بل ينجزم اعتقادهم بأسباب ضعيفة أما ترى العامى الذى به صداع يقول له غيره إستعمل ماء الورد فأنى إذا كان بى صداع استعملته انتفعت به كأنه يقول هذا صداع فينفعه ماء الورد قياسا على

---

(١) الغزالى : القسطاس ص ٧٢ — ٧٤

صداعى فيميل قلب المريض إليه فيستعمله ولا يقول له اثبت أولا أن ماء الورد يصلح لكل صداع كان من البرودة أو من الحرارة أو من أبخرة المعدة وأنواع الصداع كثيرة فاثبت أن صداعى كصداعك ومزاجى كمزاجك وسنى كسنك وصناعتى كصناعتك وأحوالى كأحوالك فإن جميع ذلك يختلف به العلاج فان طلب تحقيق هذه الأمور ليس من شأن العوام لأنهم لا يشوفون إليها ولا من شأن المكامين لأنهم وإن نشوفوا إليها على خلاف العوام فلا يهتدون إلى الطرق المفيدة برد اليقين وإنما هى من شنشنة قوم عرفوها من أحمد صلى الله عليه وسلم وهم قوم اهتدوا بنور الله إلى ضياء القرآن وأخذوا منه الميزان بالقسط والقسطاس المستقيم فأصبحوا قوامين لله بالقسط[1] .

قال ذلك الغزالى وكرره فى كتبه وهو وإن لم يكن فى الأصل أول من دعا إلى ذلك إلا أن حرصه على توضيحه والدفاع عنه يظهره بمظهر البادى به .

التحرر من التقليد :

٢ — أن يتحرر من التقليد أيا كان نوعه ومصدره فلا يقلد والدا ولا رفيقا ولا أستاذا ولا مذهبا[2] بل يعمل فكره ويجتهد إن كان من

---

(١) الغزالى : القسطاس ص ٨ — ٧٧٦

(١) العقاد : التفكير ص ٤٧ والغزالى : المنقذ ص ١١ والقسطاس ص ٦٢ وفيصل التفرقة ١٤٤ — ١٤٦

أهل الاجتهاد فما غاب على ظنه أنه هو الحق اتبعه أخطأ فى ذلك أو أصاب وإن لم يكن من أهل الاجتهاد فيكيفه أن يجتهد فى النظر إلى الأئمة فمن رآه أفضل وصوابه أغلب على قلبه اتبعه مثله فى ذلك مثل المريض يختار من الأطباء باجتهاده مايغلب على ظنه أكثرهم فائدة له وسرعة فى معالجته وحسما لدائه إذ الخلق لم يكلفوا الصواب عند الله فذلك غير مقدور عليه ولا تكليف بما لايطاق بل كلفوا مايظنونه صوابا فان أصابوا فى ذلك فلهم أجران وإن أخطأوا فلهم أجر واحد [1] والغمر البليد أعمى العميان فى نظر الغزالى هو من يحجر على الغير العدول عن مذهب الأصحاب المتقدمين والمشائخ المتكلمين ويرى مخالفتهم ولو فى قيد شبر كفرا ومباينتهم ولو فى شىء نزر ضلال وخسران [2] يقول الغزالى ولعلك إن أنصفت علمت أن من جعل الحق وقفا على واحد من النظار بعينه فهو إلى الكفر والتناقض أقرب. أما الكفر فلأنه نزله منزلة النبى المعصوم من الزلل الذى لايثبت الإيمان إلا بموافقته ولا يلزم الكفر إلا بمخالفته ، وأما التناقض فهو أن كل واحد من النظار يوجب النظر وأن لاترى فى نظرك إلا مارأيت وكل مارأيته حجة . وأى فرق بين من يقول قلدنى فى مجرد مذهبين وبين من يقول قلدنى فى مذهبى ودليلى جميعا وهل هذا إلا التناقض [3] .

---

(١) الغزالى : القسطاس ص ٦٥

(٢) الغزالى : فيصل التفرقة ص ٣ ، ١

(٣) الغزالى : فيصل التفرقة ص ٥ وراجع ميزان ص ٢٢٨

وعلى هذا فالأولى لكل إنسان أن يجانب الالتفات إلى المذاهب وأن يطلب الحق بطريق النظر ليكون صاحب مذهب ، لا أن يكون فى صورة أعمى يقلد قائداً وحوله ألف مثل قائده ينادون عليه بأنه أهلكك وأضلك عن سواء السبيل وستعلم فى عاقبة أمرك ظلم قائدك فلا خلاص إذن إلا فى الاستقلال .

خذ ماتراه ودع شيئا سمعت به فى طالع الشمس ما يغنيك عن زحل

يقول الغزالى فى آخر كتابه ميزان العمل : ولو لم يكن فى مجارى هذه الكلمات إلا مايشككك فى اعتقادك الموروث لتنتدب للطلب فناهيك به نفعا إذ الشكوك هى الموصلة للحق فمن لم يشك لم ينظر ومن لم ينظر لم يبصر ومن لم يبصر بقى فى العمى والضلال، نعوذ بالله من ذلك[1].

توحيد الغاية :

٣ — أن لا معاندة بين الشرع المنقول والحق المعقول وأن من حاول الاستغناء بأحدهما عن الآخر هو إلى الأغبياء أقرب منه إلى العقلاء إذ مثال العقل البصر السليم عن الآفات والأذاء ومثال القرآن الشمس المنتشرة الضياء فأخلق بأن يكون طالب الاهتداء المستغنى إذا استغنى بأحدهما عن الآخر فى غمار الأغبياء فالمعرض عن العقل مكتفيا بنور القرآن مثاله المتعرض لنور الشمس مغمضا للاجفان فلا فرق بينه وبين العميان فالعقل مع الشرع نور على نور .

والملاحظ بالعين العور لأحدهما على الخصوص متدل بحبل غرور

---

(١) الغزالى : ميزان العمل من ص ٣٢٨ ، ٤٠٥ — ٤٠٩

وعلى هذا فكلا طرفى قصد الأمور ذميم وأنى يستتب الرشاد لمن يقنع بتقليد الأثر والخبر وينكر مناهج البحث والنظر ، أو لا يعلم أنه لا مستند للشرع إلا قول سيد البشر صلى الله عليه وسلم وبرهان العقل هو الذى عرف به صدقه فيما أخبره أو كيف يهتدى للصواب من اقتفى محض العقل واقتصر ، وما استضاء بنور الشرع واستبصر فليت شعرى كيف يفزع إلى العقل من حيث يعتريه العى والحصر أو لا يعلم أن خطأ العقل قاصر وأن مجاله ضيق منحصر ، هيهات قد خاب على القطع والثبات من لم يجمع بتأليف الشرع والعقل هذا الشتات [١] .

تحديد الغرض :

٤ — أن لا يدع فنا من فنون العلم ولا نوعا من أنواعه إلا وينظر فيه نظراً يطلع به على غايته ومقصده ثم إن ساعده العمر وواتته الأسباب طلب التبحر فيه فان العلوم كلها متعاونة مترابطة بعضها ببعض ويستفيد منه فى الحال حتى لا يكون معاديا لذلك العلم بسبب جهله فان الناس أعداء ما جهلوا [٢] .

على أن الغزالى — وقد أدرك استحالة الإحاطة لجميع العلوم فينبغى أن يأخذ من كل شىء أحسنه فيكتفى بشممة من كل علم ويصرف الميسور من العمر إلى العلم الذى هو سبب النجاة والسعادة وهو غاية جميع العلوم وهى معرفة الله على الحقيقة والصدق فالعلوم كلها خدم لهذا العلم وهـذا العلم حر لا يخدم غيره [٣] .

---

(١) الغزالى : الاقتصاد فى الاعتقاد ص ٢ ، ٣ وميزان العمل ص ٣٣٧ - ٣٤١

(٢) الغزالى : ميزان العمل ص ٣٤٨

(٣) الغزالى : ميزان العمل ص ٣٤٩ - ٣٥٠

وفى رأيه أن العلوم ليست كلها فى درجة واحدة من الأهمية فعلم الفقه مثلا الذى يحتاج إليه كل واحد صحيحا كان أو مريضاً ليس كعلم الطب الذى لايحتاج إليه غير المرضى [١] وحتى آيات القرآن ليست كلها فى مرتبة واحدة بل بعضها فاضل وبعضها مفضول فآية الكرسى مثلا ليست كآية المداينات وسورة الإخلاص ليست كسورة تبت وهكذا مما يؤكد شرف بعض الآيات على بعض [٢] .

اختيار الادلة :

٥ — أن يختار الباحث من الأدلة المنطقية مايتناسب والقضايا التى يعرضها وليتحاش كل دليل يتطرق إليه احتمال السحر والتدليس والطلسم وغيرها[٣] مما لاتكون له علاقة حقيقية بموضوع البحث إذ أن من يعلم أن العشرة أكثر من الثلاثة لايمكنه أن يقتنع بدليل قلب العصا ثعبانا فى إثبات العكس [٤] فذلك يتطرق إليه التباس كثير فلا يوثق به بل إن من يؤمن بقلب العصا ثعبانا وشق القمر مثلا فى إثبات نبوة سيدنا محمد يكفر بخوار العجل فى إثبات إله السامرى[٥] وفى هذا من التناقص مافيه مما يشهد بعدم العلاقة بين القضية ودليلها وإلا فأى فرق بين خوار العجل وبين قلب العصا فى إثبات الدعوى .

جاء فى القسطاس للغزالى مايأتى : إن ثلاثة أنفس لو ادعوا عندك أنهم يحفظون القرآن فقال أحدهم برهانى أنه نص على الكسائى

---

(١) الغزالى - الإحياء (٢) الغزالى - جواهر القرآن

(٣) الغزالى -القسطاس ص ٦٠ (٤) الغزالى المنقذ ص ١١

(٥) الغزالى - القسطاس ص ٥٩

أستاذ المقرئين إذ نص على أستاذى وأستاذى نص على فكان الكسائى نص على . وقال الثانى : إنى أقلب العصا حية وقال الثالث : رهانى أن أقرأ جميع القرآن بين يديك من غير مصحف فليت شعرى أى هذه البراهين أوضح عندك وقلبك بها أشد تصديقاً . فقال بالذى قرأ القرآن فهو غاية البراهين إذ لا يخالجنى فيه ريب — اما نص أستاذه عليه ونص الكسائى على استاذه فيتصور ان تقع فيه أغاليط ولاسيما عند طول الأسفار، واما قلب العصا حية فلعله فعل ذلك بحيلة وتلبيس وإن لم يكن تلبيسها فغايته انه فعل عجيب ومن أين يلزم أن من قدر على فعل عجيب ينبغى أن يكون حافظا للقرآن[1] .

مراعاة أحوال المخاطبين :

٦ — استلهام أساليب القرآن فى مراعاة أحوال المخاطبين عند الجدل من كون بعضهم يقتنع بالحكمة وآخرون بالموعظة وفريق ثالث بالمجادلة طبقا للآية القرآنية (أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن)[2] فيستعمل مع أهل الحكمة الموازين القسط بأن يعلمهم كيفية الوزن بها ليرتفع الخلاف بينهم على قرب[3] ويستعمل مع العوام الموعظة لقصور فهمهم عن الحكمة[4] التى عولج بها الفريق الأول أما المجادلون فيدعوهم بالتلطف إلى الحق

(١) الغزالى ـ القسطاس ص ٥٨

(٢) القسطاس ص ١٠ ، ١١ والجام العوام ص ٦٣

(٣) الغزالى ـ القسطاس ص ٦٢ (٤) الغزالى ـ القسطاس ص ٦٢

بأن لا يتعصب عليهم ولا يعنفهم بل يرفق ويجادل بالتى هى أحسن فيسلم لهم الأصول التى يقرونها ليستنتج منها الحق بالميزان المحقق فان لم يقنعهم ذلك رقاهم إلى تعليم الموازين فان أصروا على تعصبهم ولجاجهم وعنادهم لم يكن بد من أن يعالجهم ببأس السلطان وبالسيف والسنان [١] وبالحديد الذى فيه بأس شديد وعلى نفسها جنت براقش وذلك كله طبقا للاية القرآنية التى يرى الغزالى أنهـــا تتضمن نجاة الخلق من الاختلافات وهى قوله تعالى : (وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد) [٢] .

فالكتاب — كما يقول الغزالى — للعوام يستفيدون منه الموعظة ، والميزان للخواص يرفع الخلاف بينهم على قرب، والحديد الذى فيه بأس شديد للذين يتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنه وابتغاء تأويله ولا يعلمون أن ذلك ليس من شأن وأنه لا يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم. يقول :ولولا اشتمال القرآن على ما ذكرنا لما صح تسميته نورا لأن النور ما يبصر بنفسه ويبصر به غيره. [٣]

وعلى ضوء هذا التقسيم السابق بنى الغزالى عدة قضايا منها :

١ — أن تعليم الكلام للعوام حرام لكثرة الآفة فيه [٤] وأنه من الخير للعامى أن يشتغل ولو بالمعاصى البدنية من أن يخوض فى البحث

---

(١) الغزالى القسطاس ص ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩

(٢) الغزالى القسطاس ص ٦١ ، ٦٢

(٣) الغزالى القسطاس ٦٨ ، ٦٩ (٤) الغزالى: فيصل التفرقة ص ٣

عن معرفة الله فان المعاصى غايتها الفسق والبحث للعامى غايته الشرك وأن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء[١] على أنه إن كان ولا بد من دليل فلا بأس أن يتعلم الدليل على معرفة الخالق — ووحدانيته وعلى صدق الرسول وعلى اليوم الآخر ولكن بشرطين:

أحدهما : أن لا يزداد معه على الأدلة التى فى القرآن .

والآخر : أن لا يمارى فيه إلا امراء ظاهرا ولا يتفكر فيه إلا تفكرا سهلا جليا،ولا يمعن فى التفكير ولا يوغل غاية فى البحث[٢] .

هذه هى الطريقة المثلى التى ينبغى أن يعرف بها الخلق جلال الخالق وعظمته فأما أدلة المتكلمين وتقسيماتهم ومقدماتهم فانها تشوش قلوب العوام[٣] فتثير فى نفوسهم الشبهات وتحرك العقائد وتزيلها عن الجزم والتصميم[٤] وقد تقود أيضا إلى إشعار العوام بأن وراء رسوم المتكلمين — صنعة يعجز عنها هو فيكون ذلك سببا لرسوخ العناد فى قلبه[٥] على أن الحاصل من وراء كل صناعة الكلام أن لا حاصل وإنما هى جدليات لا تقود إلى يقين[٦] يقول : ربما خطر ببالك أن الناس أعداء ما جهلوا فاسمع هذا ممن خبر الكلام ثم قلاه بعد حقيقة الخبرة وبعد التغلغل فيه إلى منتهى

---

(١) الغزالى : الجام العوام ص ٢٥ ، ٢٦

(٢) الغزالى : الجام العوام ص ٢٦ (٣) الغزالى الجام العوام ص ٢٧ والاقتصاد ص ٦

(٤) الغزالى : الاحياء ج١ ص ٨٢ والرسالة القدسية

(٥) الغزالى : فيصل التفرقة ص ٣٠ والاحياء ج١ ص ٨٧

(٦) الغزالى : ميزان العمل ص ٣٥٣ والرسالة اللدنية ص ٦

درجة المتكلمين وجاوز ذلك إلى التعمق فى علوم أخر تناسب نوع الكلام وتحقق أن الطريق إلى حقائق المعرفة فى هذا الوجه مسدود[١] وأنه هو شخصيا آمن بالله والنبوة وباليوم الآخر لا بدليل معين محرر بل بأسباب وقرائن — وتجارب لا تدخل تحت الحصر تفاصيلها[٢]، حاصلها أن الإيمان نور يقذفه الله فى قلوب عبيده عطية وهدية منه[٣] .

وعلى هذا فالأولى أن يرد العوام إلى صناعتهم متى نطقوا بكلمة الشهادة وعلموا الصلاة والزكاة[٤] إذ الحق الصريح أن كل من اعتقد ما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام واشتمل عليه القرآن اعتقادا جازما فهو مؤمن وإن لم يعرف دلالته[٥] بدليل أن صاحب الشرع نفسه لم يطالب العرب فى مخاطبته إياهم بأكثر من التصديق ولم يفرق بين أن يكون ذلك بإيمان وعقد تقليدى أو بيقين برهانى[٦] والتجربة والمشاهدة فى مثل هذا الايمان — وإيمان المتكلمين توضح أن الإيمان المستفاد من الدليل الكلامى ضعيف جدا مشرف على الزوال بكل شبهة فى حين أن الايمان الراسخ هو إيمان العوام الحاصل فى قلوبهم فى الصبا بتواتر السماع والحاصل بعد البلوغ بقرائن أحوال لا يمكن التعبير عنها[٧] .

---

(١) الغزالى : الاحياء جـ١ ص ٨٦ (٢) الغزالى : المنقذ ص ٣٦

(٣) الغزالى : فيصل التفرقة ص ٢٩

(٤) الغزالى : فيصل التفرقة ص ٣٠ والقسطاس ص ٦٣ — ٦٤

(٥) الغزالى : فيصل التفرقة ص ٣١ والقسطاس ص ٦٣ — ٦٤ والرسالة الوعظية ص ٥ والجام العوام ص ٥٧ (٦) الغزالى : الإقتصاد ص ٦

(٧) الغزالى : فيصل التفرقة ص ٣١ والجام العوام ص ٥٩

استقصاء الحاصر :

٧- يرى الغزالى أن المتكلمين لم يهتموا بالاستقصاء الحاصر الذى يجمع شتات كل الأفراد ويدور بين النفى والاثبات إذ أن ذلك أمر صعب ، وكياسة المتكلمين ناقصة ولذلك تراهم يقولون أن كان فيه قسم آخر فابرزه، وربما قال الآخر لايلزمنى ابرازه وطال اللجاج وربما استدل القايس وقال لو كان فيه قسم آخر لعرفناه ولعرفته فعدم معرفتنا تدل على نفى قسم آخر إذ عدم رؤيتنا للفيل فى مجاسنا لاتدل على نفى الفيل ولا يدرى قط هذا المسكين أنه لم نعهد قط فيلا حاضرا لم نره ثم رأيناه وكم رأينا حاضرة عجزنا جميعا عن إدراكها ثم تنبهنا لها بعد مدة فلعل فيه قسما آخر شذ عنا لسنا نتنبه له الآن وربما لم نتنبه له طول عمرنا [1]

نوع الادلة المناسبة :

٨ — يرى أن ردود المتكلمين على الفلاسفة لم تشتمل إلا على كلمات معقدة مبددة ظاهرة التناقض والفساد لا يظن الاغترار بها بعاقل عامى فضلا عمن يدعى دقائق العلوم [2] وفى رأيه أن ذلك يرجع إلى أنهم يعرفون الحق بالرجال لا الرجال بالحق مما نتج عنه :

(أ) عدم تشميرهم عن ساق الجد لتحصيل علم الفلسفة فإنه لا يقف

---

(١) الغزالى : القسطاس ص ٨٦ ، ٧٧

(٢) الغزالى : المنقذ من الضلال ص١٨

على فساد نوع من العلوم من لا يقف على منتهى ذلك العلم حتى يساوى أعلمهم فى أصل ذلك العلم ثم يزيد عليه ويجاوز درجته فيطلع على ما لم يطلع عليه صاحب العلم من غور وغائلة[1] .

(ب) إنهم وإن كانت فيهم كياسة ترقوا بها عن العوام إلا أن كياستهم ناقصة إذ أن فى باطنهم خبثا وعنادا وتعصبا وتقليداً يمنعهم عن إدراك الحق وتكون هذه الصفات أكنة على قلوبهم أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا لكن لم تهلكهم إلا كياستهم الناقصة فإن الفطنة البتراء والكياسة الناقصة شر من البلاهة بكثير[2] .

(ج) تمثيلهم دور الصديق الجاهل فى نصرتهم للاسلام حيث ظن البعض أن الدين ينبغى أن ينصر بإنكار كل علم منسوب إلى الفلاسفة فأنكر جميع علومهم وادعى جهلهم فيها حتى أنكر قولهم فى الخسوف والكسوف وزعم أن ما قالوه على خلاف الشرع ، فلما قرع ذلك سمع من عرف ذلك بالبرهان القاطع لم يشك فى برهانه ولكن اعتقد أن الاسلام مبنى على الجهل وإنكار البرهان القاطع فازداد للفلسفة حبا وللاسلام بغضا . ولقد عظم على الدين جناية من ظن أن الإسلام ينصر بإنكار هذه العلوم ، وليس فى الشرع تعرض لهذه العلوم بالنفى والإثبات ، ولا فى هذه العلوم تعرض للامور الدينية فالمنطق مثلا ليس فيه ما يخالف ما ذكره المتكلمون وأهل النظر فى الأدلة إلا من حيث العبارات والاصطلاحات وزيادة الاستقصاء فى التعريفات

---

(١) الغزالى : المنقذ ص ١٨ (٢) الغزالى : القسطاس ص ٦٨

والتشبيهات فإذا أنكر لم يحصل فى إنكاره عند أهل المنطق إلا سوء الاعتقاد فى عقل المنكر بل فى دينه الذى يزعم أنه موقوف على مثل هذا الانكار .

والطبيعيات بحث يضاهى بحث الطب فكما أن ليس من شرط الدين إنكار الطب فليس من شرطه أيضا إنكار ذلك العلم إلا مسائل معينة ذكرها الغزالى فى كتابه التهافت .

والرياضيات تتعلق بعلم الحساب والهندسة وعلم هيئة العالم وليس يتعلق شىء منها بالأمور الدينية إثباتا ونفيا بل هى أمور برهانية لاسبيل إلى مجاحدتها بعد فهمها ومعرفتها .

أما السياسيات فكلام الفلاسفة فيها يرجع إلى الحكم المصلحية الدنيوية المأخوذة من كتب الله والحكم المأثورة عن أنبيائه .

وأما الإلهيات فكلام الفلاسفة فيها تخمينى وليس برهانيا كما فى الرياضيات ، ولذلك فعلى الباحث ألا يخلط بين بحثهم هنا وبحثهم هناك بل عليه أن يسلم لهم ما برهنوا عليه ، ويرفض ما قرروه تخمينا وليحذر من أن ينخدع برياضياتهم البرهانية فيصدقهم فى إلهياتهم التخمينية كما لينصف الحق فلا يرفض الرياضيات بدعوى أن برهانهم فيها قد يكون من قبيل برهانهم فى الإلهيات .

الدليل والمدلول :

٩ — دحض ما أثبته المتكلمون الأوائل من أن بطلان الدليل

---

(١) الغزالى : المنقذ ص ٢١ — ٢٤

يؤذن ببطلان المدلول وأثبت بالأدلة المنطقية حصول العكس أحيانا، وعليه فقد استبعد أن تكون مثل هذه القواعد تبعا للعقائد الإيمانية في وجوب اعتقادها ما دامت لا تأتي بالنتيجة الحتمية التي توقعها من بنوا العقائد عليها[1] .

الفلاسفة بين الايمان والكفر :

١٠ — اعتبر الفلاسفة أحد خصوم العقائد اقتناسب الكثير من مذاهب المبتدعة ومذاهبهم وعلى الأخص في الإلهيات من مسائلهم، وعلى ذلك فقد ضمن علم الكلام الرد على آرائهم ونقضها[2] مكفراً لجمهورهم في ثلاث مسائل هي :

١ — إنكار حشر الأجساد .

٢ — إنكار علم الله بالجزئيات .

٣ — قدم العالم[3] .

أما بقية العشرين مسألة التي هي مجموع تهافتهم — كما عبر عنه[4] فقد بدعهم فيها ولم يكفرهم لقرب مذهبهم فيها من مذاهب المعتزلة ، ولما كان المعتزلة غير كفار فيما خالفوا فيه غيرهم فهؤلاء مثلهم بل لقد ألف الغزالي

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٣٦٩
(٢) ابن خلدون : المقدمة ص ٣٦٩ (٣) الغزالي : المنقذ ص ٢٣ - ٢٤
(٤) الغزالي : تهافت الفلاسفة

كتاباً خاصاً اسمه فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة حاول أن يبين فيه فساد رأى من يتسارع إلى التكفير فى كل مايخالف مذهبه[1] .

التوسع فى الدولة :

١١ — كان هدف سابقى الغزالى من علم الكلام حفظ عقيدة أهل السنة على أهل السنة، وحراستها عن تشويش أهل البدعة ولما كان هذا الهدف على سموه عديم الجدوى — عند الغزالى - فى حق من لم يسلم سوى الضروريات شيئا لم يكن أمامه بد من أن يقوم بتطويره وأن يضمنه من الإضافات مايقنع غير المسلمين بالعقائد الأيمانية .

استعمال المنطق :

١٢ — كانت ركيزة علماء الكلام قبل الغزالى مبنية على مقدمات تسلموها من خصومهم واضطرارهم إلى تسليمها إما :

(ا) التقليد .

(ب) إجماع الأمة .

(حـ) أو مجرد القبول من القرآن والأخبار[2] .

ولما كان الغزالى لايؤمن بالتقليد[3] ولا يرى الإجماع حجة[4] ولا يكتفى بالبساطة والسذاجة فى تلقى المعارف والأخبار لم يكن بد من أن يخالف منهج القدماء ويختط لنفسه منهجاً لا يقوم على نقس.

---

(١) الغزالى : المنقذ ص ١٦

(٢) الغزالى المنقذ من الضلال ص٢٤ .

(٣) الغزالى : المنقذ والاحياء والقسطاس ص ٥٦

(٤) الغزالى : فيصل التفرقة ص ٢٦ — ٢٧ والمستصفى

الركائز التى قام عليها بناء سابقيه فكان أن استعمل المنطق فى كل قضية من القضايا التى تعرض لها جاعلا موازينه معيارا لكل علم. ولعله بهذا المفهوم اختار اسم (معيار العلوم) علما على كتابه فى المنطق .

كما أنه فى سبيل المنهج حاول أن يكون إيجابيا فرفض أن يسلك ما سلكه السابقون فى استخراجات مناقضات الخصوم ومؤاخذتهم بلوازم مسلماتهم إذ أن ذلك فى نظره عمل سلبى لا يفيد الاسلام انتشارا بقدر ما يفيد المسلم إتقانا واطمئنانا .

الفصل الثالث

الباطنية

تاريخهم وفلسفتهم ودور الغزالى

ليس من أغراضنا هنا أن نثبت صحة نسب الباطنية أو ننفيه، فسواء صح نسبهم لاسماعيل الامام ابن جعفر الصادق[1] أو لميمون القداح أو اليهودى[2] أو لرجل نصرانى[3] أو لم يصح كل ذلك[4] فمن المؤكد أنهم قاموا بدور خطير فى الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية كان سببا فى اثراء المكتبات بثروة علمية شغلت الفكر زمنا طويلا[5] وأخذت اهتماما من المفكرين. لقد تسمت هذه الفرقة خلال التاريخ بأسماء مختلفة سنذكرها كلها بايجاز حتى يستطيع القارىء متابعتى فى هذه الدراسة وخاصة إذا ما وردوا خلال النصوص بأسماء غير المشهورة عنهم فهم :

---

(١) ابن خلدون : العبر ج ٣ ص ٣٦٠ وج ٤ ص ٢١ والخطط للمقريزى .

(٢) ابن خلدون : العبر ج ٣ ص ٣٦٠ وأخبار القرامطة باليمن المنقول من كتاب السلوك للقاضى أبى عبد الله يوسف المعروف بالبهاء الجندى ص ١٣٩ والكتاب ضمن مجموعة الكتب التى طبعت بلندن فى مجلد واحد سنة ١٣٠٩ وترجمها إلى الإنجليزية هنرى كاسلكى فى سنة ١٨٩٣

(٣) ابن خلدون : العبر ج ٣ ص ٣٦٠ (٤) نفسه ج ٣ ص ٣٦٠

(٥) محمد كامل حسين : الطائفة الاسماعيلية : تاريخها نظمها عقائدها «المقدمة » ص ١ طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر الطبعة الأولى سنة ١٩٥٩ م

١ — الباطنية لكتمان أمر دعوتهم[١] أو لدعواهم بأن لظواهر القرآن والأخبار بواطن تجرى في الظواهر مجرى اللب من القشر، وأنها بصورها توهم عند الجهال الأغبياء صورا جلية وهى عند العقلاء والأذكياء رموزا وإشارات إلى حقائق خفية، وأن من تقاعس عقله عن الغوص على الخفايا والأسرار والبواطن والأغوار وقنع بظواهرها مسارعا إلى الاغترار كان تحت الأواصر والأغلال معنى بالأوزار والأثقال (التى هى تكاليف الشرع)[٢].

٢ — القرامطة أو القرمطة لقبوا بها نسبة إلى رجل يقال له حمدان قرمط كان معروفا بالزهد فاستماله الباطنية إليهم[٣] أو إلى آخر تظاهر بالزهد ونزل على من يسمى كرميته فأخذ الاسم منه ثم خفف فقيل قرمط فعرفت الفرقة به[٤] أو لأسباب أخرى غير التى ذكرناها هنا[٥].

---

(١) ابن خلدون: العبر ج ٤ ص ٩٤

(٢) فضائح الباطنية للغزالى ص ١١ وابن الجوزى تلبيس إبليس ص ١١٢ وهو نقل كامل للنص من كتاب الغزالى والمنتظم لابن الجوزى القسم الثانى من الجزء الخامس ص ١١١

(٣) الغزالى: فضائح الباطنية ص ١٣ — ١٤ وابن الجوزى تلبيس إبليس ص ١٠٤، ١٠٥ والمقالات والفرق للقمى ص ٨٣ طبع طهران سنة ١٩٦٢م.

(٤) المنتظم لابن الجوزى ج ٥ القسم الثانى ص ١١١، ١١٢، ١١٣ أو تلبيس إبليس له أيضا ص ١٠٤ والقمى: المقالات والفرق ص ٨٣

(٥) المنتظم لابن الجوزى ج ٥ القسم الثانى ص ١١١، ١٢، ١١٣، والقمى: المقالات والفرق فقرة ١٦١ تتمة لصفحة ٨٣ ص ٢١٨ فما بعدها. والعبر ج ٣ ص ٢٢٥، ٢٣٦ وتاريخ الشعوب الإسلامية ج ٢ ص ٧٢، ٧٥ والأشعرى: المقالات ص ٢٦ والفرق بين الفرق ص ١٦٩. والمقريزى: الخطط ج ٢ ص ٢٥٧ — والجرجانى شرح المواقف ج ٣ ص ٢٨٨.

٣ — المزدكية : ذكر ذلك الشهرستانى[١] غير أنه لما تعرض للمزدكية قال إنهم أصحاب مزدك ومزدك هو الذى ظهر فى أيام قباذ والد أنوشروان وكان ينهى الناس عن المخالفة والمباغضة والقتال ، ولما كان أكثر ذلك يقع بسبب النساء والأموال أحل النساء وأباح الأموال وجعل الناس شركة فيهما كاشتراكهم فى الماء والنار والكلأ[٢] وعلى هذا فلعلهم انما سموا بذلك لما يجىء بعد فى شرح الخرمية التى هى من ألقابهم وحاصلها أنهم ينادون بطى بساط التكليف وتسليط الناس على اتباع اللذات وطلب الشهوات وقضاء الوطر من المباحات والمحرمات[٣]

وعلى كل فهذه أشهر ألقابهم بالعراق[٤] أما ألقابهم بخراسان فهى :

٤ — التعليمية : لقبوا بها لأن من مذاهبهم إبطال الرأى وابطال تصرف العقول ودعوة الخلق إلى التعليم من الامام المعصوم وأنه لا مدرك للعلوم إلا بالتعليم . قال الغزالى : وهذا اللقب هو الأليق بباطنية عصره لأن تعويلهم الأكثر على الدعوة إلى التعليم وإبطال الرأى

---

(١) الشهرستانى : الملل والنحل ، سيد كيلانى طبع الحلبى جـ ١ ص ٩٢ طبع ١٩٦١

(٢) نفسه ص ٢٤٩ وراجع أيضا نفس الكتاب طبع المطبعة الأدبية الطبعة الأولى سنة ١٣١٧ هـ جـ ٢ ص ٨٦ والكتاب المنشور بهامش الملل والنحل لابن حزم .

(٣) فضائح الباطنية ص ١١ وتلبيس إبليس ص ١٠٦

(٤) الشهرستانى ، الملل والنحل جـ ١ ص ١٩٢ ، طبع الحلبى . والعبر لابن خلدون جـ ٤ ص ٩٣ ، ٩٤ .

وإيجاب اتباع الامام المعصوم وتنزيله في وجوب التصديق والاقتداء به بمنزلة رسول الله صلى الله عليه وسلم[١].

٥ — الملحدة أو الملاحدة ، ذكر ذلك الشهرستاني وغيره وقال إنه وسابقه من ألقابهم بخراسان[٢] ولعل السبب في ذلك يرجع لكفرياتهم التي أشار إليها الغزالي وغيره[٣] مما سنعرض له فيما بعد .

٦ — السبعية : لقبوا بذلك لأمور أحدها اعتقادهم أن أدوار الإمامة سبعة وأن الانتهاء إلى السابع هو آخر الأدوار، واحتجوا لتدعيم آرائهم بأن السموات سبع ، والأرضين سبع ، وأيام الأسبوع سبع ، والكواكب سبعة (وحتى جسم الإنسان سبع : الرأس والبطن ويدان ورجلان وظهر) فدل على أن دور الأئمة يتم بسبعة وأن الانتهاء إلى السابع هو آخر الأدوار وهو المراد بالقيامة وأن تعاقب هذه الأدوار لا آخر له .

أما الأمر الثاني فلقولهم أن تدبير العالم السفلى منوط بالكواكب السبعة : زحل ثم المشترى ثم المريخ ثم الزهرة ثم الشمس ثم عطارد ثم القمر. قال الغزالي وهذا مسترق من ملحدة المنجمين ويلتفت إلى مذاهب

---

(١) فضائح الباطنية للغزالي ص ١٧ وابن الجوزي : تلبيس إبليس ص ١٠٦ والمنتظم لابن الجوزي أيضا القسم الثاني جـ ٥ ص ١١٤

(٢) الشهرستاني : الملل والنحل جـ ١ ص ١٩٢ محمد كامل حسين : طائفة الإسماعيلية ص ٦٣

(٣) فضائح الباطنية ص ١٧ وابن خلدون : العبر جـ ٤ ص ٨٥

الثنوية فى أن النور يدير أجزاء الممتزجة بالظلمة بهذه الكواكب السبعة[١] .

أما الأمر الثالث فلتمييزهم عن الاثنى عشرية[٢] .

٧ — البابكية : وهو اسم لطائفة منهم بايعوا رجلا يقال له بابك الخرمى يدعون نبوة رجل من ملوكهم قبل الاسلام يقال له شروين ويزعمون أنه أفضل من نبينا صلى الله عليه وسلم ومن سائر الأنبياء قبله، وقد أبادهم وحرق رؤساءهم المعتصم فى سنة ٢٢٣هـ وكانوا يبيحون اصطياد النساء فى ليلة خاصة فى السنة[٣] .

٨ — المحمرة : لقبوا بذلك إما لأنهم صبغوا الثياب بالحمرة ولبسوها أيام بابك وكان ذلك شعارهم وإما لأنهم يقررون أن كل من خالفهم من الفرق وأهل الحق حمير، ويرجح الغزالى السبب الاول[٤]

---

(١) فضائح الباطنية ص ١٦ وابن الجوزى تلبيس إبليس ص ١٠٢

(٢) القمى : المقالات فقرة ١٥٦ ص ٢١٣ .

(٣) ابن الجوزى : المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم لعبد الرحمن بن على ابن محمد بن على الجوزى المتوفى سنة ٥٩٧ القسم الثانى من الجزء الخامس الطبعة الاولى بمطبعة دائرة المعارف العثمانية بحيدرآباد الدكن سنة ١٣٥٧هـ ص ١١٣، ١١٤ . وتلبيس ابليس لابن الجوزى أيضاً ص ١٠٣ ، ١٠٤ . وفضائح الباطنية ص ١٥ .

(٤) فضائح الباطنية للغزالى ص ١٧ وابن الجوزى : تلبيس إبليس ص ١٠٤ والمنتظم لابن الجوزى أيضا القسم الثانى من الجزء الخامس ص ١١٤ .

٩ — الخرمية : خرم لفظ أعجمي[1] ينبئ عن الشيء المستلذ الذي يشتهيه الآدمي، وكان هذا لقباً للمزدكية الذين أشرت إليهم سابقاً وإنما لقب هؤلاء بلقب أولئك لمشابهتهم إياهم في آخر المذهب وإن خالفوهم في المقدمات وسوابق الحيل في الاستدراج[2]

١٠ — الاسماعيلية : نسبة إلى زعيمهم محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق . زعموا أن الإمامة انتقلت من سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه ثم إلى الأخوين الحسن فالحسين استثناء لأنها لا تكون إلا في الأبناء ثم إلى بني الحسين علي زين العابدين فمحمد الباقر ثم إلى جعفر الصادق فابنه اسماعيل ابنه محمد الذي بدأ دور الستر من بعده لأن دور السبعة تم به ، ولقب الاسماعيلية هذا هو اللقب المفضل لدى طوائفهم لأنهم كما قالوا تميزوا به عن بقية فرق الشيعة »[3].

---

(١) في هامش تلبيس ابليس لابن الجوزي تعليق على لفظ خرم كتبه مصحح الكتاب محمد منير الدمشقي قال فيه خرم بضم الخاء وتشديد الراء مفتوحة بوزن سكر صفة مشبهة بالفارسي بمعنى جذلان ومسرور ص ١٥٥ من تلبيس ابليس .

(٢) فضائح الباطنية للغزالي ص ١٥ وابن الجوزي: تلبيس ابليس ص ١٠٥، ١٠٦ والمنتظم لابن الجوزي أيضاً القسم الثاني من الجزء الثالث ص ١١٣ .

(٣) ابن خلدون : العبر ج ٣ ص ٣٦٠ و ٢٦١ ج٤ ص٢٩ فضائح الباطنية للغزالي ص١٥ — ١٦ والقمي : المقالات والفرق ص٨٠ وص ٢١٢ فما بعدها فقرة رقم ٥٦ . والقلقشندي : صبح الأعشى ج١ ص١١٥ — ١٢٠ ومحمد جمال =

ولهم ألقاب أخرى غير هذه العشرة المذكورة منها :

١١ — الفاطمية : نسبة إلى السيدة فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد أقاموا دولة اشتهرت باسم الدولة الفاطمية[١]

١٢ — الفداوية وهو لقب فيه معنى التضحية والبطولة ربما لفدية إمامهم أو مذهبهم ولقد أثبت التاريخ لهم من البطولات والتضحيات ما يدعم اطلاق اللفظ عليهم، وعلى كل فقد استغل الملوك اخيراً هذه الروح لقتل أعدائهم غدراً[٢]

= الدين سرور : النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام والعراق فى القرنين الرابع والخامس بعد الهجرة طبع دار الفكر العربى سنة ١٩٦٤ ص ٧٢ وهامش نفس الصفحة والبغدادى : الفرق بين الفرق صفحات ١٣٩ — ١٦٩ - ١٨٨ وابن النديم: الفهرست ص ٢٦٧ والشهرستانى الملل النحل طبع الحلبى جـ١ ص ٢٩١ - ١٩٢ وابن الجوزى المنتظم القسم الثانى من الجزء الخامس ص ١١٠ وتلبيس ابليس لابن الجوزى أيضاً ص ١٠٢ - ١٠٣ وفخر الرازى : الاعتقادات : ص ٧٧ وتبصرة العوام ص ١٨٢ ومحمد بن مالك أسرار الباطنية وأخبار القرامطة طبع مصر ١٩٣٩ ومحمد كامل حسين طائفة الاسماعيلية ص٣٠، ٢٩ والمقريزى: الخطط جـ٢ ص٣٥٧ طبع بولاق. وابن خلكان جـ١ ص ٤٠١ تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد عقب ترجمة أبى المغيث الحسين بن منصور الحلاج رقم ١٨١ وابن الاثير تاريخ ابن الاثير حوادث سنة ٢٧٨ و ٢٨٦ ،٢٨٩، ٣٠١ ، ٣١٧، ٣١٧ -

(١) طائفة الاسماعيلية لمحمد كامل حسين ص ٣٠ .

(٢) ابن خلدون العبر جـ٤ ص١٧، ومحمد كامل حسين، طائفة الاسماعيلية ص ٧٤ - ٧٥ .

١٣ — النزارية : نسبة إلى نزار بن المستنصر بالله وهو اسم للفرقة الشرقية منهم بزعامة الحسن بن الصباح الذى رفض الاعتراف بإمامة المستعلى بن المستنصر وأقر بامامة أخيه نزار لأنه كما زعم سمع من إمامه المستنصر أن نزار هو صاحب الأمر من بعده[١]

١٤ — الدروز : نسبة إلى الدرزي الداعية الفارسى الذى نادى بتأليه الحاكم بأمر الله، وهم إحدى الفرق التى انقسمت من الباطنية واتخذت لنفسها عقائد وآراء خالفت بها العقائد[٢] والآراء الإسماعلية إلى درجة أن دعاة الإسماعلية أنفسهم اضطروا للرد على تأليه الحاكم[٣] .

١٥ — الحشاشون أو الحشيشة : من الطريف أن بعض المؤرخين زعموا أن الحسن بن الصباح كان قد عود الفدائيين من أتباعه على تعاطى (الحشيشة) حتى إذا ما أدمنوها صار يطلب منهم القيام بالأعمال الفدائية نظير الحصول عليها منه وإدخالهم الجنة، وهو قول يجافى الحقيقة وينافى الفطنة والكياسة والشجاعة والمهارة الجدلية فى العلوم والدقة التامة فى التصرفات وكتمان الأسرار الذى يفقدها متعاطى الحشيشة ويتمتع بها الباطنى لذا فالجنة والحشيشة من إختلاقات المؤرخين وتحريفاتهم وليس لها أساس من الصحة[٤] .

---

(١) ابن خلدون : العبر : جـ ٤ ص ٩٨ ومحمد كامل حسين : طائفة الاسماعيلية ص ٧٤ ، ٧٥ .

(٢) ابن خلدون : العبر جـ٤ ص ٩٤ ومحمد كامل حسين : طائفة الاسماعيلية ص ٤١ ، ٤٢ وصفحة ٦٢ ، ٦٣ .

(٣) محمد كامل حسين : طائفة الاسماعيلية ص٤٢ ، ٤٣ .

(٤) محمد كامل حسين المصدر السابق ٧٤ ، ٧٥ .

والواقع أن الحشاشين جمع حشان وحشان وهى تطلق على الرجال الشجعان الذين يحشون الحروب ويسعرونها غير هيابين ولا وجلين وقد كان الباطنية من هذا النوع من الرجال الأمر الذى أباح للمؤرخين تسميتهم بالحشاشين(١).

١٦ — السفاكون : ما أن تم للحسن بن الصباح امتلاك قلعة آلموت حتى جمع إليه طائفة صالحة من الأطفال من أبناء الدعاة والمستجيبين المعروفين بغيرتهم للاسماعلية واستعدادهم للتضحية فى سبيل مذهبهم، وأخذ فى تدريب هؤلاء الأطفال على الطاعة العمياء وبث روح التضحية بينهم من أجـل العقيدة والامام ، ثم علمهم على استعمال الأسلحة فافزع بهم العالم الإسلامى كله وجماعة الصليبيين أيضاً ومن ذلك أطلق الكتاب الغربيون على الإسماعلية النزارية اسم السفاكين لما قام به الفدائيون إبان الحرب الصليبية من أعمال بطوليه رائعة إهتز لها كيان الدولة الصليبية(٢).

(١) جاء فى اللسان لابن منظور حش الحرب يحشها حشا . . اذا اسعرها هيجها بإسعار النار قال زهير :

يحشونها بالمشرفية والقنا وفتيان صدق لاضعاف ولا نكل

ومنه قيل للرجل الشجاع نعم محش الكتيبة ، وفلان محش حرب، موقد نارها ومنه حديث أبى بصير :

ويل أمه محش حرب ، لو كان معه رجال . والجمع من كل ذلك حشان وحشانه وحشاشين الاخيرة جمع الجمع كله راجع فصل الحاء حرف الشين جـ٨ ص ١٧٤ طبعة مصورة عن طبعة بولاق المؤسسة العامة للتأليف والانباء والنشر الدار المصرية للتأليف والترجمة .

(٢) محمد كامل حسين : طائفة الاسماعيلية ص ٧٣ ، ٧٤ .

دور الحركة الباطنية :

أما من هم الباطنية وماهى فلسفتهم فقدذكر ابن الجوزى أن جماعة من الثنوية والمجوس والملحدين ومن دان بدين الفلاسفة المتقدمين أعملوا آراءهم فى استعادة ماطال امتلاك المسلمين له من أوطانهم وانفقوا على أن يندسوا لتحطيم الدولة الإسلامية وإعادة دولتهم الفارسية تحت شعار الرافضة مبدئياً فكان أن انتسبوا إلى إسماعيل بن جعفر[١] باعتبارهم إحدى فرق الشيعة التى أقرت بإمامة محمد بن اسماعيل مؤسسة بذلك فى التشيع فرقة جديدة تقابل فرقه الإمامية أو الإثنى عشرية الذين أنكروا إمامة محمد لموت والده إسماعيل فى حياة الإمام جعفر واقروا أن يكون الأخ الأصغر موسى الكاظم إماماً للشيعة غير متفقين مع أولئك فى تخصيص استثناء إمامة الأخوين على الحسن والحسين[٢] .

دور الستر :

ومن هنا تميز الإسماعيلية عن باقى فرق الشيعة[٣] ولكى يتسنى لهم الاستفادة بمركز إمامهم فى خدمة أغراضهم اعتبروا محمدا هذا السابع التام من الأئمة الظاهرين وأول الأئمة المستورين الذين يستترون ويظهرون

---

(١) ابن الجوزى: المنتظم القسم الثانى من الجزء الخامس ص ١١٠ ، ١١٨ وتلبيس ابليس لابن الجوزى أيضا ص ١٠٦ ، ١٠٧ .

(٢) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٢٩ ، ٣٠ ومحمد كامل حسين : طائفة الاسماعلية ص ١١ فمابعدها .

(٣) الشهرستانى : الملل والنحل ج١ ص ١٩١ ، ١٩٢ .

الدعاة وسموه محمداً المكتوم[١] وجعلوا الإمامة السرية بعده لعدد من الأئمة ما زال المؤرخون مختلفين فى إحصائهم فمن قائل ثلاثة[٢] ومن قائل خمسة ومن قائل سبعة[٣] وأياً كان العدد وأياً كان صدق الأخبار المروية عنهم فى دور الستر بعد وفاة جعفر الصادق فى سنة ١٤٧ هـ فمن الثابت أنهم لم يظهروا على الميدان العام إلا بعد موت حسن العسكرى فى سنة ٢٦٠ هـ ودخول ابنه محمد السرداب[٤] حينذاك تطلع الإمامية إلى الفرع الآخر من أبناء جعفر الصادق المتسلسل من محمد بن اسماعيل[٥] فلم يلبث أن اختار المهدى إمام الإسماعيلية المستتر آنذاك اثنين من أتباع الإمامية هما منصور بن زادات بن حوشب الذى عرف أخيراً بمنصور اليمن[٦] . المتوفى سنة ٣٠٢ هـ وعلى بن فضل[٧] (المتوفى سنة ٣٠٣ هـ) وذلك

---

(١) ابن خلدون العبر ج٤ ص ٣٠

(٢) ابن خلدون : العبر ج٤ ص ٣٠

(٣) محمد كامل حسين : طائفة الاسماعلية ص ١٥ والنشار : نشأة الفكر الفلسفى فى الكلام ج٤ ص ٤٠٤

(٤) محمد كامل حسين : طائفة الاسماعيلية ص ٢١ وابن خلدون : العبر ج٤ ص ٢٩

(٥) محمد كامل : المصدر السابق ص ٢١ .

(٦) محمد كامل حسين : طائفة الاسماعيلية ص ٢٢

(٧) راجع كتاب أخبار القرامطة باليمن المنقول من كتاب السلوك للقاضى أبى عبد الله يوسف المعروف بالبهاء الجندى ص ١٢٩ والكتاب المشار اليه مكتوب فى آخر كتاب تاريخ اليمن لنجم الدين عمار بن أبى الحسن على الحكمى اليمنى وجميع الكتب مترجمة بالانجليزية ترجمها هنرى كاسلسكى طبع لندن ١٨٩٢ م

للتبشير بالإمام الإسماعيلي المنتظر[1] هادفاً بهذا الاختيار تمكين إمامته في نفوس الإمامية من جهة وانتهاز فرصة دخول محمد السرداب لجمع فرق الشيعة الإمامية والإسماعيلية تحت إمرته من جهة أخرى .

ولئن فشل المهدي في جمع الإمامية تحت إمرته فقد نجح في تأسيس أول دولة إسماعيلية له في التاريخ بقيادة منصور اليمن سنة ٢٦٦ هـ[2] ثم بقيادة علي بن فضل غير أن الأخير خلع المهدي ونادى بنبوة نفسه وأباح المحرمات فغدر به ومات[3] .

دور الظهور :

وفي ذلك العهد الذي نجحت فيه الدعوة الإسماعيلية باليمن قامت حركة إسماعيلية أخرى في البحرين عرفت في التاريخ بحركة القرامطة الذين امتد نشاطهم إلى بادية الشام وشغلوا الخلافة العباسية عدة سنوات كما أقلقوا المسلمين بانتزاعهم الحجر الأسود والاحتفاظ به مدة اثنين وعشرين عاماً في عاصمتهم هجر ، وأخيراً زعزعوا إمامهم المهدي نفسه لشكهم في شخصيته ومن ثم في الدعوة نفسها فهرب المهدي منهم إلى

(١) طائفة الاسماعيلية محمد كامل حسين ص٢٢ وأخبار القرامطة باليمن المنقول من كتاب السلوك للبهاء الجندي ص ١٤٠، ١٤١ وابن خلدون : العبر جـ٣ ص ٢٦١ .

(٢) أخبار القرامطة باليمن المنقول من كتاب السلوك للبهاء الجندي ص١٤٣ ومحمد كامل حسين : طائفة الاسماعيلية ص ٢٢ ، ٢٣ .

(٣) أخبار القرامطة باليمن ص ١٤٢ ، ١٤٩ ومحمد كامل حسين طائفة الاسماعيلية ص ٢٢

شمال أفريقية حيث أظهر نفسه هناك بعد أن أمن من ملاحقة القرامطة والعباسيين له[١] .

وبظهور الإمام المهدى إلى الميدان العام دخلت الاسماعيلية فى دور الظهور وأصبح فى إمكان الناس جميعاً تمييز شخصيته حتى لا يحدث التباس فيها يؤدى إلى الطعن فيه كما فعل أبو عبد الله الشيعى أخيراً[٢] وفيه وفى الدعوة نفسها كما فعل قرامطة البحرين[٣] .

وما أن استقر لعبد الله المهدى الأمر بعد قمعه للثورات السياسية والثقافية من البربر أتباع المذهب المالكى وبعض الخوارج[٤] وبنائه

---

(١) راجع تاريخهم فى ابن خلدون : العبر ج ٣ ص ٣٣٥ وفيها نص خطاب دعوتهم و ص ٢٥٠ و ٢٧٧ و ج ٤ ص ٨٤ وما بعدها و ٤٥٩ ومحمد كامل حسين : طائفة الإسماعيلية ص ٢٣ — ٢٤ وابن الجوزى المنتظم فى القسم الثانى من الجزء الخامس ص ١١١ ، ١٢ ١ — ١١٣ والقمى المقالات والفرق الصفحات ٨٣ — ٨٦ و ٢٠٨ — ٢١٩ وبروكلمان تاريخ الشعوب الاسلامية ج ٢ ص ٧٢ — ٧٥ والأشعرى : مقالات الإسلاميين ص ٢٦ ، وكشف الاسرار الباطنية والقرامطة ، وتلبيس إبليس لابن الجوزى ص ١٠٤

(٢) محمد كامل حسين: طائفة الاسماعيلية ص ٢٦

(٣) طائفة الاسماعيلية لمحمد كامل حسين ص ٢٣ - ٢٤ - ٢٥ - ٢٦ وراجع أيضا الحسين محمد بن أحمد بن عبد الرحمن الملطى المتوفى سنة ٢٧٧ وهو مؤلف كتاب التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع طبع سنة ١٢٩٩ هـ ومؤلفه كما هو معروف . ى وراجع الدكتور على سامى النشار : نشأة الفكر الفلسفى فى الاسلام ج ١ ص ٢٠٣ فما بعدها .

(٤) محمد كامل حسين : طائفة الاسماعيلية ص ٣١ .

مدينة المهدية المركز الرسمى للدعوة الإسماعيلية ، حتى وضع لنفسه سياسة الاتجاه نحو بلاد المشرق[١] .

وفى سنة ٣٥٨ ﻫ استطاع جوهر الصقلى القائد الإسماعيلى أن ينتصر على الأخشيديين ويمحو منها دولتهم ويفتح مصر ويقيم بها دولة الإسماعيلية الجديدة التى سميت باسم الدولة الفاطمية فى محاولة أخرى منهم لجمع كل فرق الشيعة تحت إمرتهم ثم لم يلبثوا أن بنوا (القاهرة) لمصر عاصمة و(الأزهر) للثقافة الإسماعيلية مركزاً[٢] .

ومن القاهرة بدءوا الزحف نحو بلاد الشرق الإسلامى منتهزين ما آل إليه أمر الخلافة العباسية من ضعف فافتتحوا الشام وبلاد العرب واليمن وكادوا يكتسحون جميع البلاد الإسلامية فى الشرق بعد أن اكتسحوا قبلا شمال أفريقية من المحيط الأطلسى حتى برزخ السويس وجزيرة صقلية وجنوب إيطاليا . ولكن هزيمتهم من الخارج متمثلة فى دحر جيوش السلاجقة لهم وتهديدات الصليبيين بانتزاع ممتلكاتهم فى بلاد الشام . ومن الداخل متمثلة فى تلاعب الوزراء وسوء الحالة الاقتصادية وطمع الأمراء فى الاستقلال بإماراتهم . كل ذلك وغيره حال بينهم وبين تحقيق طموحهم فكان أن تشبثوا بما تبقى لهم من أملاك بعد أن ارتدت بعض ممتلكاتهم إلى حظيرة الخلافة السنية .

---

(١) طائفة الاسماعيلية ص ٣٢ - ٣٣

(٢) طائفة الاسماعيلية ص٣٦ . والخطط المقريزى ج ٥ص ٢٤٩ فمابعدها وج ٨ ص ٢٧٣ فما بعدها .

انقسام الحركة :

وفى سنة ٤٠٨ انقسم الإسماعيلية بمصر إلى من رفضوا تأليه الحاكم بأمر الله وهم الأغلبية ، وإلى من آمنوا بذلك وهم الدروز الذين هجروا مصر إلى بلاد الشام حيث كونوا فرقتهم التى اتخذت لنفسها أخيراً عقائد وآراء خالفت أصول الدعوة الإسماعيلية .

وأعقب ذلك في سنة ٤٨٧هـ انقسام أخطر حين قتل الوزير الأفضل ابن بدر نزاراً الإمام الموصى له على رأى النزارية . ونصب المستعلى ابن المستنصر أخا نزار إماماً على قصره آنذاك .

حينذاك رأى البعض الإقرار بإمامة المستعلى وقد عرف هؤلاء فيما بعد بأتباع الإسماعيلية العربية . غير أنهم لم يكن لهم دور خطير فى التاريخ إذا ما قورنوا بالنزاريين خاصة وقد انقسموا بعد قتل إمامهم الآمر سنة ٥٢٤هـ إلى اتباع الحافظ عبد المجيد الذى قضى صلاح الدين أخيرا على دولتهم سنة ٥٦٧هـ. وإلى أتباع الإسماعيلية الطيبية أو الإسماعيلية البهرة باليمن والهند ثم إلى فرقة البهرة الداودية والبهرة السليمانية فى القرن العاشر .

النزاريون أو أصحاب الدعوة الجديدة :

أما البعض الآخر من الاسماعلية فقد أنكروا أمامة المستعلى ونادوا بإمامة نزار بن المستنصر . ولما كان الحسن بن الصباح أشهر دعاة الاسماعيلية قد هرب فعلا إلى المشرق واتخذ قلعة آلموت مركزاً له وأيد إمامة نزار فقد اتجهت أنظار النزاريين نحوه باعتباره زعيما ينتظر منه الكثير لنصرة فرقتهم الجديدة .

وقد لعب هؤلاء النزاريون بزعامة الحسن بن الصباح دوراً أخطر

فى التاريخ من دور الفرقة الاسماعيلية المعاونة لهم . بل إن فرقتهم تعد تجديداً وثورة فى الفكر الاسماعيلى كله ، الأمر الذى خول المؤرخين إطلاق إسم أصحاب الدعوة الجديدة عليهم بينما أطلقوا على أولئك أصحاب الدعوة القديمة[١] .

الحسن بن الصباح :

وكان لزعامة الحسن بن الصباح أثر كبير فى خطورة هذه الفرقة فقد درب أتباعه على التضحية والفداء فى سبيل الإمامة والعقيدة ووجههم نحو غزو أعدائهم من السنيين والشيعيين والاسماعيلية الغربيين عن طريق السيف والغدر تارة وعن طريق الجدال والنقاش تارة أخرى فاستطاع بذلك كسب أتباع جدد وفتح حصون وقلاع أخرى كانت تشكل خطراً على مناهضيه .

وقد حارب الجميع وعلى الأخص السلاجقة حرباً لا هوادة فيها ، وكان أكثرهم نقمة عليه وصرامة فى حربه الوزير السلجوقى نظام الملك المشهور وكاد هذا الوزير أن ينجح فى فتح قلعة آلموت أخطر حصونهم فى محاولة منه للإطاحة بدعوتهم غير أن الحسن أرسل له من اغتاله وأراح الاسماعيلية منه فكان بذلك أول شهيد قتله الباطنية[٢] ثم من بعده أوقع فدائيو الإسماعيلية الذعر فى قلوب كثير من العامة والعلماء والوزراء والملوك ونشروا جواً من الإرهاب أفزع الجميع فلم يكن أحد

---

(١) الشهرستانى : الملل ج ١ ص ١٩٢

(٢) عبد الكريم العثمان : سيرة الغزالى ص ٢١ – ٢٨

وقتها يأمن على نفسه من غدرهم[١] حتى ليقال أن السلطان سنجر السلجوقى استيقظ من نومه يوماً فوجد خنجراً بجوار فراشه ومؤخراً حصل لصلاح الدين نفسه ما جعله يخشاهم[٢] .

وبمثل القوة والحماس الذى خاض به الباطنية معاركهم السياسية خاضوا به المعارك العلمية هادفين بهذا إلى زعزعة ثقة الناس فى علمائهم وفقهائهم كما هدفوا بذلك من قبل إلى زعزعة ثقة الناس فى ملوكهم وكبرائهم[٣] .

وكانوا من البراعة والمهارة فى الجدل بحيث استطاعوا السخرية من العلماء المناظرين أمام جمهرة المستمعين فلم يكن بد والحال هكذا أن يلجأ مناظروهم للتأليف ليستعيضوا به ما فقدوه من قدرة على الجدل فظهرت كتب كثيرة فى نقد الباطنية وكشف حيلهم وإزالة شبهاتهم ودحض افتراءاتهم كان أشهرها كتاب الغزالى فضائح الباطنية وفضائل المستظهرية .

وبعد وفاة الحسن آلت زعامة الطائفة الروحية لأبى على الداعى وزعامتها السياسية لكيابزوك (المتوفى سنة ١١٣٨ م) حسب وصية الحسن لعمه كيابنورك (المتوفى سنة ١١٦٢ م) ثم للحسن بن محمد بن كيابزوك) .

بين الاعتدال والانحراف :

وفى عهد هذا الأمير دخلت الدعوة الاسماعيلية الشرقية فى دور جديد

---

(١) عبد الكريم العثمان : سيرة الغزالى ص ٢٧ — ٢٨

(٢) شذرات الذهب لابن العماد (٣) فضائح الباطنية ص ٢٥ — ٢٦

أسقط فيه الحسن عن اتباعه جميع التكاليف الدينية ثم مالبث أن أعلن للناس أنه هو الإمام الرسمى لا الداعى فقط وذلك فى ١٧ رمضان سنة ٥٥٩ هـ فالتف حوله جمع كبير فرحين بظهور إمامهم بعد فترة الانتظار التى عاشوها أثناء ستره .

ومات هذا الحسن (المشهور بالحسن الثانى على ذكره السلام) فى سنة ١١٦٦ م فأعقبه على الامامية ابنه المشهور بمحمد الثانى بن الحسن الثانى غير أنه ما أن آلت الامامية للحسن الثانى بن محمد الثانى فى سنة ٦٠٧ هـ حتى أعلن ثورته على المبادىء الاسماعيلية التى أورثهاله أجداده ونادى بعودة طائفته لتعاليم الاسلام بعد أن كفر الحسن بن الصباح وأتباعه وحرق كتب الاسماعيلية .

وعمل كهذا لم يكن بالأمر اليسيروخاصة إذا ماصدرمن زعيم الطائفة فقد أحدث دويا ابتهج له المسلمون بينما قابله الفدائيون بجرأة لاتقل عنه دويا إذ لم يلبثوا أن قتلوا الحسن الثالث فى سنه ١٢٢١م وأعادواتعاليم الطائفة لما كانت عليه من الإباحية قبل عهده وعلى هذا استمر أمرهم حتى أدال المغول دولتهم بقيادة هولاكو فى سنة ٦٥١ هـ (١٢٤٥ م) .

وقد تبقى من هؤلاء طائفة كانت تدين بالولاء لشمس الدين محمد بن ركن الدين خورشاه آخر الأئمة الاسماعيلية النزارية فى آلموت ثم لما مات شمس الدين محمد فى النصف الأول من القرن الثامن للهجرة نادى فريق بإمامة محمد شاه ونسله إلى طاهر شاه الثالث المعروف بالدكنى آخر أئمة الفرقة. ونادى آخرون وهم الغالبية بإمامة قاسم شاه ونسله وقد اختار هؤلاء وأولئك الهند لهم مقراً ومركزا .

فلسفة الباطنية :

وتقوم فلسفة هذه الفرقة على نفس الأساس الذى تقوم عليه فلسفة الثنويه فكما نادى الثنويه [١] من أصحاب مانى بن فاتك الحكيم بأن العالم مصنوع مركب من أصلين قديمين أحدهما نور والآخر ظلمة وأنهما أزليان لم يزالا ولن يزالا وأنكروا وجود شىء إلا من أصل قديم [٢] كذلك نادى الباطنية بإلهين قديمين لاأول لوجودهما من حيث الزمان إلا أن هؤلاء خالفوا أولئك فجعلوا أحد الالهين علة لوجود الثانى وسموا الأول السابق أو القلم أو العقل وسموا الثانى التالى أو اللوح أو القدر أو النفس ثم عاد الباطنية فتبعوا الثنوية فى نسبة النقص إلى أحد الالهين وهو التالى هنا المقابل للظلام هناك . وأضاف الباطنية إلى إلههم أوصافا ظاهرها التنزيه وباطنها الانكار والرفض ونفى الصانع فالله عندهم غير موجود وغير معدوم وهو غير معلوم وغير مجهول كما نسبوا إليه أيضا التعطل عن الصفات وعدم التعطل عنها بل منعوا الناس تسمية إلههم موجودا وهو عين النفى مع تغيير العبارة [٣]

بين الفلسفة اليونانية والفلسفة الباطنية :

وأضاف الباطنية إلى فلسفتهم تلك آراء أخرى تشبه إلى حد كبير آراء الفلاسفة اليونانيين بل وبعض المسلمين .

---

(١) الثنوية هم أصحاب الاثنين الأزليين : الشهرستانى : الملل والنحل جـ١ ص ٢٤٤

(٢) الشهرستانى : الملل والنحل جـ١ ص ٢٢٤ .

(٣) الغزالى : فضائح الباطنية ص ٣٩

فقد نادى هؤلاء الباطنية كما نادى الفلاسفة من قبلهم بقدم العالم إلا أنهم اختلفوا مع اليونانيين فلم يجاروهم فى المناداة بنظرية الفيض واستبدلوا نظرية العقول بنظرية أخرى فى التوليد تقوم على التضاد فقالوا: إن التالى وهو أول مبدع حدث من السابق ومن هذا التالى حدثت النفس الكلية الناشئة جزئياتها فى هذه الأبدان المركبة وتولد من حركة النفس الحرارة ومن سكونها البرودة ثم تولد منها الرطوبة واليبوسة ثم تولدت من هذه الكيفيات الاسطقصات الأربع وهى النار والهواء والماء والأرض (١).

والدارس لنظريتهم هذه يلاحظ أنها وإن اختلفت مع نظرية الفيض الإلهى إلا أنها تؤدى إلى نفس النهاية من حيث إن الله سبحانه وتعالى ليس هو الخالق المباشر للعالم وأن القمر أو غيره من الكيفيات التى أدت إلى نشأة الاسطقصات الأربع هى السبب المباشر فى إحداث العالم والمؤثر الفعال فى إيجاده.

وكما نسب فلاسفة اليونان الكمال للموجود الثانى لا باعتبار ذاته بل باعتباره فيضا من الموجود الأول كذلك نسب الباطنية الاعتدال للانسان لا باعتبار ذاته بل باعتباره متولدا مباشرة من اعتـــــدال الاسطقصات الأربع أثناء تمازجها.

( ) الغزالى : فضائح الباطنية ص٣٩

بين النبي والامام :

هـــذا ولم تكن فلسفة الباطنية فى الغيبيات والنبوات بأكثر اعتدالا من فلسفتهم فى الإلهيات .

فقد أنكروا ضمنا وجود جبريل عليه السلام وأحالوه إلى عقل يفيض المعارف أو القرآن من السابق بواسطة التالى — على النبى — وأنكروا أن يكون جبريل شخصا متجسما متركبا عن جسم لطيف أو كثيف يناسب المكان حتى ينتقل من علو إلى أسفل .

أما النبى عندهم فهو شخص فاضت عليه من السابق بواسطة التالى قوة قدسية صافية مهيأة لأن تنتقش عند الاتصال بالنفس الكلية بما فيها من الجزئيات . وقد شبهوا حاله فى ذلك — كما زعموا — بحال بعض ذوى النفوس الزكية الذين يشاهدون فى مناهم من مجارى الأحوال فى المستقبل حقيقة ماسيحدث أحيانا كما يشاهدون أمثلة تقارب الحقيقة وتناسبها أحيانا أخرى .

على أن هذا النبى عندهم أقل مكانة من الإمام إذ أن القوة القدسية الفائضة على النبى لاتستكمل فى أول حلولها مثلها فى ذلك مثل النطفة الحالة فى الرحم لاتؤتى ثمارها إلا بعد تسعة أشهر ، ومن ثم كان كمال هذه القوة أكثر تجليا فى السابع منه فى الأول بل ان النبى صلى الله عليه وسلم عندهم هو أقل أولئك السبعة مكانة إذ يأتى دوره فى أسفل السلسلة ويعلو مكانة وكمالا عندهم على فالحسين فالحسن فعلى بن الحسين فمحمد بن على فجعفر بن محمد .

على أن هذه الفرقة وقد عاشت فى مجتمع إسلامى أو جاورت ذلك المجتمع على الأقل فقد كان من الطبيعى أن تجد تفاوتا شديداً فى آرائها وتعارضاً واضحا فى افكارها مبعثه خشية تلك الفرقة من التصريح الذى يوجب التجريح ومن هنا كنت تجدهم أحيانا ينكرون الوحى ثم يثبتونه ويجعلون النبى صلى الله عليه وسلم مفضولا ثم يعودون فيفضلونه وهكذا على أنهم جميعاً لاينكرون أن مصدر تعليمهم هو الإمام وليس النبى .

موقفهم من القرآن الكريم :

وكان رأيهم فى القرآن مزيجاً من أراء المسيحيين والمعتزلة فقد أنكروا أن يكون القرآن بتركيبه الحالى كلام الله تعالى وزعموا أنه تعبير محمد صلى الله عليه وسلم عن المعارف التى فاضت عليه من العقل الذى هو المراد باسم جبريل، ولما كان هذا الرأى مناقضا للفكر الاسلامى فقد حاولوا صبه فى قالب مذهبى يساير ولو إلى حد الآراء المذهبية التى كانت شائعة فى تلك الفترة، فادعوا كما ادعى بعض الفلاسفة والمعتزلة أن كلام الله بسيط غير مركب إذ التركيب من صفات الحوادث ولا تعلق للحوادث بذات الله تعالى . ادعوا بأن الله باطن لاظهور فيه ولعلهم يمهدون بذلك لفلسفتهم المذهبية التى تقصر فهم بطون القرآن على الامام .

رأيهم فى القيامة والسمعيات:

واتفق الباطنية جميعا على إنكار القيامة وأولوها بأنها رمز إلى خروج الامام وقيام قائم الزمان وقالوا إن هذا النظام المشاهد فى الدنيا

من تعاقب الليل والنهار وحصول الانسان من نطفة والنطفة من إنسان وتولد النبات وتولد الحيوانات لا ينعدم أبد الدهر وأن السموات لايتصور انعدام أجسامها .

ولم يثبت الباطنية الحشر والنشر للاجساد ولا الجنة ولا النار وأولوا كل ما جاء فى ذلك من ألفاظ تضمنها القرآن أو الحديث .

ونقل المؤرخون عن الباطنية الاباحة المطلقة ورفع الحجاب واستباحة المحظورات واستحلالها وانكار الشرائع .

التاويل المذهبى :

على أن أخطر ما نادت به حركتهم ودعت إليه فلسفتهم هو التأويل المذهبى وتحميل النصوص القرآنية ما يستحيل معه النص القرآنى إلى نص شيعى لا صلة له بالقرآن ولا بالعقل على الإطلاق[1] إذا كان من رأيهم أن كل ما ورد من الظواهر فى التكاليف والحشر والنشر والأمور الإلهية كلها أمثلة ورموز إلى بواطن .

فالكعبة هى النبى والباب على والصفا هو النبى والمروة على والطواف بالبيت سبعاً هو الطواف بمحمد إلى تمام الأئمة السبعة والصيام هو الامساك عن كشف السر والظهور هو التبرى والتنظف من اعتقاد كل مذهب سوى مبايعة الإمام وإبليس وآدم عبارة عن أبى بكر وعلى إذ أمر أبو بكر بالسجود لعلى والطاعة له فأبى واستكبر والدجال

(١) الدكتور عبد القادر محمود : الفكر الإسلامى والفلسفات المعارضة فى القديم والحديث ، طبع المطبعة الحكومية بالخرطوم ١٩٧١ م (قسم التأليف والنشر جامعة الخرطوم) جـ١ ص ٢٧ .

زعموا أنه أبو بكر وكان أعور إذ لم يبصر إلا بعين الظاهر دون عين الباطن ويأجوج ومأجوج هم أهل الظاهر .

أما المعجزات فلا وجود لها فى فلسفتهم إذ أولت بما ينفيها ويسقطها فالطوفان الذى حدث فى عهد نوح وأشار إليه القرآن هو فى فلسفتهم طوفان العلم أغرق به المتمسكون بالسنة والسفينة حرزه الذى تحصن به من استجاب لدعوته ونار إبراهيم عبارة عن غضب النمروذ لا عن النار الحقيقة وذبح اسماعيل معناه أخذ العهد عليه وعصا موسى حجته التى تلقفت ما كانوا يأفكون من الشبه وانفلاق البحر هو افتراق علم موسى فى أمته على أقسام والبحر هو العالم والغمام الذى أظلهم معناه الإمام الذى نصبه موسى لإرشادهم وإفاضة العلم عليهم والجراد والقمل والضفادع هى سؤالات موسى وأزماته التى سلطت عليهم والمن والسلوى علم نزل من السماء لداع من الدعاة هو المراد بالسلوى والجن الذين ملكهم سليمان بن داود هم باطنية ذلك الزمان والشياطين هم الظاهرية الذين كلفوا بالأعمال الشاقة[1] .

وعموماً فقد كان غرض الباطنية بهذه التأويلات وأمثالها مما فاض به كتاب تأويل الدعائم[2] للقاضى النعمان بن محمد (المتوفى سنة ٣٦٣ هـ ، سنة ٩٧٤ م) كان غرضهم انتزاع المعتقدات الظاهرة من نفوس الخلق حتى تبطل به الرغبة والرهبة الأمر الذى يقود فى النهاية إلى هذيان لا يفهم فى نفسه ولا يؤثر فى ترهيب[3] .

(١) الغزلى : فضائح الباطنية ص ٥٧ — ٥٨ .

(٢) هذا هو العنوان المتداول للكتاب المذكور ولكن اسمه الأصلى (تربية المؤمنين بالتوقيف على حدود باطن الدين) طبع دار المعارف بمصر عام ١٩٦٩ .

(٣) الغزالى : فضائح الباطنية ص ٤٦ .

الفصل الرابع

دور الغزالى فى التصوف

تمهيد :

تحنث الرسول صلى الله عليه وسلم[1] وإخلاصه فى تطبيق تعاليم القرآن ظاهراً وباطناً كان حافزاً للصحابة على تقليده ومن ثم انطبعت عباداتهم بالطابع الدينى الحق فصاحب إخلاصهم القلبى جميع أفعالهم الظاهرية وهكذا كان معنى الفقه بالدين عندهم[2] .

وحين توسعت الفتوحات وأدهشت العرب المدنيات الغريبة عليهم انشغل بعضهم بها وانصرف إلى الدنيا الجديدة فكان تفكيره فيها واهتمامه بها أكثر من تفكيره واهتمامه بالعبادات الدينية التى يؤديها[3] ولم تعد كلمة الله أكبر فى افتتاح الصلاة عند هؤلاء تعنى نس

---

(١) رد كثير من الكتاب حركة التصوف الإسلامى إلى مصادر إسلامية من بين هؤلاء : قمر كيلانى : فى التصوف الإسلامى مفهومه وتطور أعلامه ص ١٦ - ١٩ وطه عبد الباقى سرور : شخصيات صوفية ص ١٨ — ٢٢ والبر نصرى نادر : التصوف الإسلامى ص ٣٩ وعبد الكريم الخطيب : نشأة التصوف ص ٣٠ وراجع الخطيب : نشأة التصوف ص ١٤ — ١٦ وابن تيمية : الصوفية والفقراء ص ١٠ — ١٤ والزهراوى : الفقه والتصوف ص ٤٠ — ٤١ والشرباصى : التصوف عند المستشرقين ص ١٧ — ٢١ والتجانى : أهل الحق العارفون بالله السادة الصوفية ص ١٣ — ١٧

(٢) الغزالى : إحياء علوم الدين جـ١ ص ٢٨ ، ٢٩ وراجع السهروردى : عوارف المعارف ص ١٣ — ١٧

(٣) ابن خلدون : المقدمة ص ٣٧٠ تحت علم التصوف

المفهوم الذى فهمه الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه منها فكان طبيعياً والأمر هكذا أن تقل عنايتهم بالفقه وأن تكون عباداتهم صورة بلا معنى وشكلا بلا روح . بل[١] لقد حدث أن تحورت حتى معنى كلمة الفقه عند هؤلاء فلم تعد تعنى ما كانت تعنيه عند أولئك فظهر آنذاك فقهاء متخصصون عنوا بالجانب الظاهرى من العبادة[٢] عناية من سبقوهم من المتكلمين بالجانب الجاف من العقائد[٣] وقلد الفقهاء الجدد المتكلمين القدامى فى الناحية الجدلية والتعريفات والمناقشات والإلزامات بل لقد أكثروا من ذلك حتى سئموا[٤] .

وتحت تأثير الفقهاء وغيرهم نسى الناس معنى العبادة وابتعدوا شيئاً فشيئاً عن مفهومها الصحيح[٥] وبقيت قلة من المسلمين هالها هذا التغير وأدهشها هذا التحول المادى فأنكرت على الجميع طريقهم واختطت لنفسها طريقاً يقربها من طريق الرسول صلى الله عليه وسلم وصحبه فعرفت حركتهم آنذاك لغرابتها على المجتمع بحركة الزهد وعرف أصحاب الحركة بالزهاد أو العباد أو النساك أو الوعاظ أو القراء[٦] :

(١) الغزالى : الاحياء ج١ ص ٢٩

(٢) الغزالى : الاحياء ج ١ ص ١٩ ، ٢٨ ، ٣٧ .

(٣) الغزالى : الاحياء ج ١ ص ٢١ ، ٢٧ .

(٤) الغزالى : الاحياء ج ١ ص ١٩ ، ٢٨ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ وأحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٢ ص ٦٣ وابن قتيبة : الاختلاف فى اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة ص ٧ .

(٥) الغزالى ج ١ ص ٢٩ .

(٦) الدكتور محمد غلاب : التصوف المقارن — ٢٩ وزكى مبارك : التصوف الإسلامى ج١ ص ٦٨ .

ثم تطورت هذه الحركة تحت عوامل الزمن واختصت بمدارك معينة[١] فأطلق الناس عليها قبل المائتين للهجرة اسم التصوف للصوف الذى يرتديه أصحابها[٢] ومن ذلك الوقت صار مفهوم العلم على قسمين[٣] :

(ا) علم مكاشفة وهو خاص بالصوفية تكلموا عنه بالرمز والإشارة فليس إلى إفصاحه سبيل أو قل إن إفصاحه عسير .

(ب) وعلم معاملة وهو مشترك بين الصوفية وغيرهم من العلماء . وقد كان مفهوم هذا العلم واحداً عند الصحابة كما وضحنا غير أنه فى القرن الثانى وما بعده انقسم إلى :

(أ) علم ظاهر عنى بأعمال الجوارح وقد تقرب به أصحابه إلى المناصب الدنيوية من الولاية والجاه والقضاء والمال والشهرة وغيرها .

(ب) علم باطن عنى بأعمال القلوب عنايته بأعمال الجوارح وقد تقرب به أصحابه إلى الله وحده وأنفوا من مشاركة أولئك فى متاع

(١) ابن خلدون المقدمة ص ٢٧١ .

(٢) الدكتور زكى مبارك : التصوف الاسلامى جـ ١ ص ٥٤ — ٦٧ وقمر كيلانى : فى التصوف الاسلامى ص ١٢ — ١٣ والسهروردى : عوارف المعارف ، والطوسى : اللمع ص ٤٠ ، ٤١ ، وابن خلدون المقدمة ص ٣٧ — ٢٧١ وابن تيمية : الصوفية والفقراء ص ٩ — والقشيرى : الرسالة ص ٢٦ ، والغزالى : الاحياء جـ ٣ ، وغلاب ، التصوف المقارن ص ٢٨ وعفيفى ، التصوف الثورة الروحية فى الاسلام ص ٣٩ .

(٣) ابن خلدون ، المقدمة ص ٢٧١ — ٢٧٢ والغزالى ، الاحياء جـ ١ ص ٤

الدنيا عملا بقوله تعالى (قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى)[١].

وبعوامل الزمن بعدت الشقة بين الفريقين وتنوعت موضوعات البحث عند كل طائفة[٢] وظهر من تعصبوا للتصوف وغالوا فى تفضيله حتى أخرجوه عن حد المعقول والتحصيل، ومن تعصبوا على التصوف وخرجوا بأصحابه إلى حد الزندقة والكفر[٣] خاصة وقد لابس المتصوفة وخالطهم أخيرا أدعياء ليسوا منهم[٤] اعطوا للمهاجمين فرصة وأتاحوا للناقدين مجالا وتمخضت المعركة عن انتصار للفقهاء كسبوه بمؤازرة الولاة بعد معارك كيدية ودموية وإذلالية وتشهيرية أوقعوها بالمتصوفة[٥].

ودحر المتصوفة سببه لهم ما ألصقه الأدعياء بهم من حلول واتحاد ووحدة وجود.

دور الغزالى:

وجاء الغزالى فى القرن الخامس يصالح بين الفريقين ويوفق بين المتخاصمين بالزامهم جميعا قبول القرآن والسنة حكما[٦] ولما كان الغزالى

---

(١) الغزالى: الاحياء ج١ ص ٤، ١٣، ١٥، ١٨، ١٩، ٢٩، ٣٧ والطوسى: اللمع ص ٤٣، ٤٤.

(٢) الغزالى، الاحياء ج ٢ ص ٣٧.

(٣) الطوسى، اللمع ص ٢١

(٤) الطوسى، اللمع ص ١٨ — ١٩ والقشيرى، الرسالة ص ٣٠٢.

(٥) أحمد أمين، ظهر الاسلام ج ٢ ص ٦١ — ٦٢.

(٦) أحمد أمين، ظهر الاسلام ج ٢ ص ٦٢

عالما فقيها وشيخا صوفيا رضى به الجميع فكانت ضحايا مصالحته :

١ — من المتصوفة أدعياء التصوف وأفكارهم الالحادية .

٢ — ومن الفقه مفهومه فى أذهان الناس ومكانة المتلبسين به[١].

وعلى هذا فقد كانت مصالحة الغزالى تعنى فى الحقيقة رد اعتبار للمتصوفة خسر به الفقهاء الكثير ـ على أن الغزالى على علمه ومكانته بين الفريقين لم يكن ليوفق هذا التوفيق الباهر لولا مؤازرة الخلافة والسلطنة له ممثلة فى شخص الوزير نظام الملك .

وبتأثير الغزالى نهض التصوف من كبوته واستعاد مكانته وأقبل الناس عليه وصاروا يتبركون ويتمسحون بكل من ينتسب إلى حقله وشملت موجة الاعجاب هذه الفقهاء والخلفاء والوزراء فلم يكن هناك من يجرؤ على مشاغبة المتصوفة ونقدهم دون أن يتعرض للأذية من أنصار التصوف .

وبدافع هذا الأعجاب وتحت تأثير هذا الاقبال تكونت الطرق الصوفية التى عرفت فى العالم الاسلامى .

غير أن الادعياء وقد فقدوا رادعيهم بعد الغزالى التحقوا مرة أخرى بركب التصوف واستغلوه أسوأ استغلال وأشنعه وألحقوا به من الوصمات ما عرضه مرة أخرى للنقد والهجوم ، وعرض المتلبسين به للطعن والتجريح فلم يعد التصوف الآن ذلك التصوف الذى طهره الغزالى . ولا عاد مفهومه ذلك المفهوم الذى عاشه النبى صلى الله عليه وسلم .

---

(١) ابن الجوزى ، المنتظم جـ ٠ ص ١٤٧ ، ١٤٨ ، ٢٠٣ ، ١٩٩

وأصحابه والقلة التى تبعتهم من بعدهم ، على أن الفقه منذ أن تحطم لم يكسب خاصة وقد نادى بعض علمائه بقفل باب الاجتهاد فصار التقليد شرعة كل فقيه والتجديد والابتكار عدو معظم المشتغلين بالفقه .

هذا وقد أحدثت كتابات الغزالى وآراؤه بشأن التصوف رد فعل عنيف فى الفكر الاسلامى :

(أ) انتصر له بعض الفلاسفة والمتكلمين فى حين هاجمه آخرون منهم .

(ب) سخط له معظم الفقهاء غير أنهم عادوا فأيدوه بل بالغ بعضهم فى كل ماذهب إليه حتى أنه عد من ينكرون على الغزالى فى غمار أعداء الدين ونسبهم إلى الكفر والالحاد .

(ج) ابتهج له الصوفية وطربوا وانتشوا لما فى تأييد الغزالى لهم من رد اعتبار لهم وإدخالهم فى حظيرة الدين خاصة وقد قال صراحة عقب دراسته الطويلة التى استعرض فيها آراء الفلاسفة والباطنية والفقهاء والمتكلمين وغيرهم ما يأتى :

علمت يقينا أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى وأن سيرتهم أحسن السير وطريقهم أصوب الطرق وأخلاقهم أزكى الأخلاق بل لو جمع عقل العقلاء وحكمة الحكماء وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ليغيروا شيئا من سيرهم وأخلاقهم ويبدلوه بما هو خير منه لم يجدوا إليه سبيلا فان جميع حركاتهم وسكناتهم فى ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به .

وكان أهم ما تعرض له الغزالى وتناله بالبحث والدراسة ماقاله من أن تحقيق المسائل الدينية بالبرهان علم وملابسة تلك الحالة ذوق والقبول من التسامع والتجربة بحسن الظن إيمان[١] والسعادة كل السعادة عنده التى هى مطلب الأولين والآخرين هى السعادة الأخروية[٢] وهذه لاتنال إلا عن طريق العلم والعمل[٣] ومادام جانب العمل عنده متفق عليه من الصوفية وغيرهم إذ غايته محو الصفات الرديئة وتطهير النفس من العادات السيئة[٤] فقد أعطى عناية خاصة لجانب العلمى فأوضح أن الصوفية لم يحرصوا على تحصيل العلوم ودراستها وتحصيل ما صنفه المصنفون فى البحث من حقائق الأمور ، بل قالوا إن الطريق تقديم المجاهدات بمحو الصفات المذمومة وقطع العلائق كلها والاقبال بكل الهمة على الله تعالى[٥] بحيث لا يلتفت القلب إلى أهل وولد ومال ووطن وعلم وولاية بل يصير إلى حالة يستوى عنده فيها وجودها وعدمها[٦] ومهما حصل ذلك فاضت على المتعلم بهذا الطريق الذوقى الرحمة وانكشف له سر الملكوت وظهرت له الحقائق[٧] حتى أنه فى يقظته يشهد الملائكة وأرواح الأنبياء ويسمع

---

(١) الغزالى : المنقذ ص ٤٠ .

(٢) الغزالى : ميزان العمل ص ١٨٠ - ١٨١ .

(٣) الغزالى : ميزان العمل ص ١٧٩ .

(٤) الغزالى : ميزان العمل ص ٢٢١ .

(٥) الغزالى ميزان العمل ص ٢٢ — ٢٢٢ وسليمان دنيا . مفهوم التصوف ص ٥٥ طبع سنة ٩٦٠ .

(٦) الغزالى : ميزان العمل ص ٢٢٢ .

(٧) الغزالى : ميزان العمل ص ٢٢٢ .

ويسمعون منهم أصواتاً، ويقتبسون منهم فوائد ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور والأمثال إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق فلا يحاول أن يعبر معبر عنها إلا اشتمل لفظه على خطأ صريح لا يمكن الاحتراز عنه وعلى الجملة ينتهي الأمر إلى قرب يكاد يتخيل منه طائفة الحلول وطائفة الاتحاد وطائفة الوصول وكل ذلك خطأ[1] بل الذي لابسته تلك الحالة لا ينبغي أن يزيد على ان يقول :

وكان ما كان مما لست أذكره فظن خيرا ولا تسأل عن الخبر

وبالجملة فمن لم يرزق منه شيئا بالذوق فليس يدرك من حقيقة النبوة إلا الاسم. وكرامات الأولياء على التحقيق بدايات الأنبياء . وهذه حالة يتحققها بالذوق من يسلك سبيلها فمن لم يرزق الذوق فتيقنها بالتجربة والتسامع إن أكثر معهم الصحبة حتى يفهم ذلك منهم بقرائن الأحوال يقينا ومن جالسهم استفاد منهم هذا الإيمان فهم القوم لا يشقى جليسهم ومن لم يرزق صحبتهم فليعلم إمكان ذلك يقينا بشواهد البرهان[2] .

ولما كان كلام الغزالي في المسائل السابقة مرضيا للبعض ومسخطاً للآخرين كما ذكرت فقد تعرض لنقاش شديد ودراسة متواصلة ونقد عنيف أحيانا وهادىء موضوعي أحيانا أخرى .

فابن باجة مثلا (أبو بكر محمد بن يحيى الصائغ التجيبي المتوفى

---

(١) الغزالي ، المنقذ ص ٣٩ — ٤٠ .

(٢) الغزالي : المنقذ ص ٤٠ .

سنة ٦٣٣ هـ)[1] أنكر فى رسالة الوداع أن يكون ما ذكره الغزالى فى كتبه هو الطريق الصحيح فى الوصول إلى الله وعنده، أن الطريق الصحيح فى الوصول إلى الله هو التفكير والتأمل الفلسفى لا الأحوال الصوفية وترك التفكير كما نادى بذلك الغزالى[2].

وجاء ابن الجوزى (٥١٠ — ٥٩٠) فسلك مسلك ابن باجة فى نقد الغزالى وتصنيفه وأنكر عليه وقد رزق نصيبا وافرا من الفقه أن يصنف كتابه (الأحياء) على طريقة القوم ويملؤه بالأحاديث الباطلة ويتكلم عن علم المكاشفة فيخرج فيه عن قانون الفقه وأن يقول فى كتابه (المفصح بالأحوال) أن الصوفية فى يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء ويسمعون منهم أصواتا ويقتبسون منهم فوائد ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق[3] وبالمثل

---

(١) راجع تاريخ حياته وما يتصل به فى الفتح بن خاقان، قلائد العقيان بباريس ٢٢٧٧ هـ ص ٣٤٩ — ٣٥١ وابن طفيل، قصة حى بن يقظان تعريب أبى ريدة، وابن خلكان، وفيات الأعيان ص ٩ جـ ٢ والقفطى، إخبار العلماء بأخبار الحكماء ليبسك سنة ١٩٠٣ ص ٦ ٤ وابن أبى أصيبعة طبقات الأطباء، مصر الطبعة الأولى سنة ١٨٨١م، والمقرى، نفح الطيب من من غصن الأندلس الرطيب مصر المطبعة الأميرية جـ ٤ ص ١٠٨ وابن خلدون، المقدمة ودى بور، تاريخ الفلسفة فى الاسلام تعريب أبى ريدة القاهرة ١٩٢٨ ص ٢٤٠ — ٢٤١ ودائرة المعارف الاسلامية

(٢) راجع فرخ، ابن باجه والفلسفة المغربية ص ٣١ ودى بور ص ٢٤٢ — ١٦٦.

(٣) تلبيس إبليس ص ١٦٦.

أنكر عليه ما ذكره من ميل أهل التصوف إلى العلوم الإلهية دون التعليمية وبعد أن نقل ماذكره الغزالى بهذا الشأن من تقديم المجاهدات لمحو الصفات المذمومة مما قد ذكرناه سابقا عاد فقال : عزيز على أن يصدر هذا الكلام من فقيه فإنه لايخفى قبحه فإنه على الحقيقة طى لبساط الشريعة التى حثت على تلاوة القرآن وطلب العلم ، وعلى هذا المذهب فقد رأينا الفضلاء من علماء الأمصار فإنهم ما سلكوا هذه الطريق وإنما تشاغلوا بالعلم أولا وعلى قدر ما رتب أبو حامد تخلو النفس بوساوسها وخيالاتها ولا يكون عندها من العلم ما يطرد ذلك فيلعب بها إبليس أى ملعب فيريها الوسوسة محادثة ومناجاة[1] . غير أنه بعد هذا النقد عاد فقال إنه إذا طهر القلب انصبت عليه أنوار الهدى فينظر بنور الله إلا أنه ينبغى أن يكون تطهيره بنور العلم لا بما ينافيه[2] .

أما ابن طفيل فقد انتصر للغزالى فى مناداته بالذوق ومايترتب عليه من مقامات تحصل للمجاهد السالك وأنكر على ابن باجه أن ينتهى حيث انتهى به طريق العلم دون أن يحاول الارتفاع عن تلك المرتبة بسلوك طريق الذوق ، وكان مما قاله فى ذلك وهذه الرتبة التى إليها أبو بكر (يعنى ابن باجة) ينتهى بطريق العلم النظرى والبحث الفكرى ولا شك أنه بلغها ولم يتخطها وأما الرتبة التى أشرنا إليها نحن أولا فهى غيرها وإن كانت إياها بمعنى أنه لا ينكشف فيها أمر

---

(١) ابن الجوزى ، تلبيس إبليس ص٣٣٣

(٢) تلبيس إبليس ، ص ٣٢٣ .

على خلاف ما انكشف في هذه، وإنما تغايرها بزيادة الوضوح ومشاهدتها بأمر لا نسميه قدرة إلا على المجاز[١] وهذه الحال التي ذكرناها وحرك سؤالك إلى ذوق منها هي من جملة الأحوال التي نبه عليها الشيخ أبو علي[٢]. وبعد أن نقل نصوصا لأبي علي ابن سينا (ولد ٣٧٠ هـ — ٩٨٠ م توفى ٤٢٨ هـ — ١٠٣٧ م) قال فهذه الأحوال التي وضعها إنما أراد بها أن تكون له ذوقا لا على سبيل الإدراك النظري المستخرج بالمقاييس وتقديم المقدمات وإنتاج النتائج[٣]. ثم انتهى ابن طفيل إلى ما انتهى إليه أبو حامد في المنقذ[٤] والأحياء[٥] من أن ما يراه أصحاب المشاهدة والأذواق والحضور في طور الولاية لا يمكن إثباته على حقيقة أمره في كتاب، ومتى حاول أحد ذلك وتكلفه بالقول أو الكتب استحالت حقيقته وصار من قبيل القسم الآخر النظري لأنه إذا كسى الحروف والأصوات وقرب من عالم الشهادة لم يبق على ما كان عليه بوجه ولا حال واختلفت العبارات فيه اختلافا كثيرا وزلت به أقدام قوم من السراط المستقيم وظن بآخرين أن

---

(١) راجع الاحياء والمنقذ ص ٣٩، ٤٠ وميزان العمل ص ٢٢٢، ٢٢٦، ٢٢٧ والرسالة اللدنية ص ١٧، وراجع رسالة أيها الولد ومشكاة الانوار ص ٠ والحكمه في مخلوقاته عز وجل ص ١ وروضة الطالبين وعمدة السالكين الصفحات ٧ — ٩، ١٥ — ١٨، ٢١، ٦١ — ٦٢

(٢) ابن طفيل : حي بن يقظان ص ٥٩ . (٣) نفسه ص ٥٩ .

(٤) الغزالي : المنقذ . ج .

(٥) الغزالي : الاحياء .

أقدامهم زلت وهى لم تزل وإنما كانت كذلك لأنها أمر لا نهاية له فى حضرة متسعة الأكناف محيطة غير محاط بها[١] ولتصوير ذلك تمثل ابن طفيل بما تمثل به الغزالى فقال :

فكان ما كان مما لست أذكره   فظن خيرا ولا تسأل عن الخبر[٢]

وقد أكد ابن طفيل كما أكد الغزالى من قبله أن هذا الطريق هو الموصل إلى الله[٣] وأنه هو طريق السعادة[٤] وأنه ذو درجات كثيرة ، سعد الغزالى بأقصاها[٥] فى حين لم ينل هو منها إلا رتبة يسيرة[٦] لم ينفع هو بها ولا يرضى للناس أن يقنعوا بها[٧] .

---

(١) ابن طفيل : حى بن يقظان ص ٦٠ — ٦١ .

(٢) ابن طفيل : حى بن يقظان ص ٥٨ والغزالى : المنقذ ص ٤٠ .

(٣) ابن طفيل : حى بن يقظان ص ٥٨ الغزالى : المنقذ ٢٩ والاحياء .

(٤) ابن طفيل : حى بن يقظان ص ٦٥ والغزالى : الاحياء وميزان العمل .

(٥) ابن طفيل : حى بن يقظان ص ٦٥ .

(٦) حى بن يقظان ص ٦٥ .

(٧) حى بن يقظان ص ٦٥ .

الفصل الخامس

دور الغزالى فى الفقه

الفقه هو علم طريق الآخرة ومعرفة دقائق آفات النفوس ومفسدات الأعمال وقوة الإحاطة بحقارة الدنيا وشدة التطلع إلى نعيم الآخرة واستيلاء الخوف على القلب[1] .هذا هو المعنى الأصلى للفقه غير أنه كان على طريق العموم والشمول يطلق أحيانا على معرفة أحكام الله تعالى فى أفعال المكلفين بالوجوب والحظر والندب والكراهة والإباحة[2].

ولما توسعت الفتوحات الإسلامية وتجددت الوقائع اليومية بدخول الناس فى دين الله أفواجا وصارت النصوص لا تفى بالوقائع المتجددة اضطر الخلفاء لندب أناس مخصوصين للتفرغ لهذا الجانب، أعنى جانب تطبيق الكتاب والسنة على الوقائع المتجددة، فاجتهدوا فيه اجتهادهم فى تصفية باطنهم وتنقية خواطرهم طبقا للمعنى الأصلى للفظ[3] .

ثم خلف من بعد هؤلاء خلف أضاعوا المعنى الأصلى وتشبثوا بالمعنى الإضافى وفصار الفقه تبعا لذلك علما على المعنى الإضافى دون المعنى الأصلى[4] وقل إن الفقه صار علما على أحكام الجوارح دون أحكام القلوب.

---

(١) الغزالى : الإحياء جـ ١ ص ٢٨

(٢) ابن خلدون : المقدمة ص ٣٥٣ والأحياء جـ ١ ص ٢٩

(٣) الاحياء جـ ١ ص ٢٧ وابن خلدون : المقدمة ص ٣٥٣

(٤) الاحياء جـ ١ ص ٢٨

ومنذ ذلك الحين انقسم مفهوم الفقه إلى قسمين :

١ — قسم خص به الصوفيـة ومن تابعهم وهم قلة ويشمل العلم بأحكام الجوارح والقلوب .

٢ — وآخر خص به أهل الفتيا ومن تابعهم وهم كثرة ويشمل العلم بأحكام الجوارح دون أحكام القلوب(١) .

وعن هؤلاء الآخرين الذين شهروا باسم الفقهاء وشهر علمهم باسم الفقه يدور فصلنا هذا .

لقد ظهرت هذه الحركة أول ما ظهرت فى أوائل العهد الأموى إذ كان الناس يتساءلون وقتها فى بساطة إذا ما واجهوا شيئاً لم يكن به إلمام ،ما حكم الإسلام فى هذا(٢) غير أنه لما كانت الامبراطورية الإسلامية واسعة كان ولا بد أن تختلف الإجابات تبعا لاختلاف منطقة سكن المجيب .

فمن بعد عن المدينة مركز الدعوة الإسلامية كانت إجاباتهم فيما لم يرد فيه نص تصدر عن القياس والرأى ، أما من سكنوا المدينة أو قاربوها فقد كانت إجاباتهم تصدر دائماً بما يتفق وعرف سكان المركز الأساسى للدعوة الإسلامية وعلى هذا فقد كانت هناك مدرستان متميزتان فى التفـكير الفقهى .

---

(١) بروكلمان : تاريخ الأدب العربى (معرب) جـ ٣ ص ٢٣٢

(٢) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٥٣ — ٢٥٧ وبروكلمان : تاريخ الأدب العربى، تعريب النجار جـ ٣ ص ٢٣٢

١ — الأولى مدرسة القياس والرأى وهى المدرسة العراقية التى يتصدرها الإمام أبو حنيفة (٨٠ هـ — ١٥٠ هـ) .

٢ — مدرسة أهل الحديث وهى المدرسة الحجازية التى يتصدرها الإمام مالك (٩٥ هـ — ١٧٩ هـ) وتلميذه الامام الشافعى من بعده (١٥٠ هـ — ٢٠٤ هـ)[١] .

ثم ظهر بعد هؤلاء فريق من العلماء بزعامة أبى داوود الظاهرى وابنه من بعده فى المشرق وابن حزم) ولد فى ٣٨٤ هـ وتوفى ٤٥٦ هـ ومن بعده ابن تومرت ويعقوب المنصور فى المغرب أنكروا القياس وأبطلوا العمل به وجعلوا المدارك كلها منحصرة فى النصوص والاجماع[٢] .

وشذ الشيعة والخوارج عن الجميع بمذاهب ابتدعوها وفقه انفردوا به وسنوه على مذاهبهم أنكرته عليهم باقى المدارس الفكرية المعتدلة منها والمتطرفة وزاد المعتدلة بإنكار ما جاء به القياسيون والظاهريون بالمثل[٣] .

ثم تمخضت المعركة الفكرية السابقة كلها عن انتصار للمعتدلين ممثلين فى المذاهب الأربعة المشهورة :

الحنفية والمالكية والشافعية والحنابلة ، والأخيرون أتباع الإمام

---

(١) ابن خلدون المقدمة ص ٣٥٤ وكنون : النبوغ المغربى ج ١ ص ٩٩ — ١١٨ و ١١٩ وابن حزم : ملخص إبطال القياس والرأى والاستحسان والتقليد طبع دمشق .

(٢) ابن خلدون : المقدمة ص ٣٥٤ .

(٣) ابن خلدون : المقدمة ص ٣٥٤

أحمد بن حنبل (ولد ١٦٤ هـ وتوفى ٢٤١ هـ) هيمنوا به على الفكر فترة طويلة لا تزال آثارها باقية حتى الآن(١) .

هذا ولما كان الكتاب العزيز والسنة الشريفة هما المصدران الأساسيان لهذه المذاهب مع ما يضاف إليها أحيانا من قياس أو إجماع أو غيرهما فقد قام الشافعى بأول محاولة فى وضع علم لأصول الفقه يقوم على هذه المصادر سمى : علم أصول الفقه(٢) اتجه فيه إلى وضع مناهج الاستنباط الصحيح وموازين للآراء الفقهية جعلها خادمة لكل المذاهب المشهورة منها والمندرسة ولم يجعلها خادمة لمذهبه الخاص . غير أن الحنفية لما لم يرتضوا طريق الشافعى فى تعميم علم الأصول اتجهو إلى استنباط الأصول التى تخدم الفقه العراقى جملة والفقه الحنفى خاصة وعلى هذا فقد كانت لهم أصول خاصة بهم ومنهاج معين فى دراسه هذه الأصول عرف بالمنهاج الحنفى تمييزا له عن المنهاج الشافعى الذى عرف بالمنهاج الكلامى لأن علماء الكلام وجدوا فيه مستراضاً علمياً يذرون فيه أفكارهم(٣) .

وقد كتبت فى علم الأصول وعلى المنهج الشافعى أو الحنفى عدة كتب كانت هى الأصل لما جاء بعدها من كتب .

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٣٥٤

(٢) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٦٠ وأبو زهرة : الغزالى الفقيه ص ٥٢٧ — ٥٣١

(٣) ابن خلدون : المقدمة ص ٣٥٩ — ٣٦١ والشيخ محمد أبو زهرة : الغزالى الفقيه ص ٥٢٨ ٥٣١ ضمن مجموعة أبحاث نشرت بدمشق سنة ١٩٦١ تحت عنوان أبو حامد الغزالى فى الذكرى المئوية التاسعة لميلاده .

ويهمنا أن نذكر هنا أن أهم ماألف على المنهج الشافعى أو الكلامى ثلاثة كتب :

(أ) المعتمد لأبى الحسين محمد بن على البصرى المعتزلى سنة ٤١٣ ﻫ

(ب) البرهان لإمام الحرمين أستاذ الغزالى المتوفى سنة ٤٨٧ﻫ

(حـ) المستصفى للامام الغزالى المتوفى سنة ٥٠٥ ﻫ — ١١١١ م [(١)]

أما ما ألف من كتب فى الفروع الفقهية على المذاهب الأربعة فكثير عددها وإن كان لنا أن نشير إلى بعضها فسنخص بالذكر ثلاثة كتب ألفت فى المذهب الشافعى كان لها دور خطير فى الفكر الإسلامى. تلك الكتب هى :

١ — البسيط للامام الغزالى .

وهو كتاب ضخم كما يستفاد من اسمه ربما يكون قد تأثر فى تأليفه له بكتاب (نهاية المطالب فى دراية المذاهب) لإمام الحرمين إن لم يكن الكتاب أشبه بصورة مختصرة لكتاب النهاية كما يرى البعض [(٢)].

وقد ألف الغزالى كتابه هذا مجاراة لروح العصر التى تستهويها التفريعات الدقيقة والوجوه الشاذة [(٣)] النادرة بدليل أنه ملأه ، بأمثال ذلك غير أنه أخيراً أدرك أن مجاراة روح العصر شىء والانتفاع بالكتاب

(١) أبو زهرة : الغزالى الفقيه ص ٥٣١ وابن خلدون المقدمة ص ٣٦١

(٢) بدوى : مؤلفات الغزالى ص ١٧ رقم ٣ والغزالى والاحياء جـ ١ ص ٣٦

(٣) الغزالى الاحياء جـ ١ ص ٤ ، ١٩ ، ٢٨ ، ٣٨

شيء آخر ، وعليه فقد اضطر لتأليف كتاب آخر نازلا عن البسيط الذى هو داعية الإملال مترقياً عن الإيجاز القاضى بالاخلال سماه كتاب (الوسيط) [١]

٢ — الوسيط :

قوبل هذا الكتاب بإعجاب منقطع النظير من أتباع المذهب الشافعى فى معظم أنحاء الإمبراطورية الإسلامية ،حتى لقد عد مقياسا للثقافة والمعرفة وعلى الأخص فى الناحية الفقهية. روى السبكى أن أبا شامة سأل الشيخ عز الدين بن عبدالسلام أيهما أفقه الشيخ فخر الدين ابن عساكر أو ابن الحرستانى فرجح ابن الحرستانى وقال إنه كان يحفظ وسيط الغزالى [٢] هــذا وقد عكف قوم على حفظه عن ظهر قلب وآخرون على شرحه واختصاره والتعرض لمشاكله أو شرح بعض مسائل من مسائله .وتخصص فريق ثالث فى تدريسه فالامام شهاب الدين مثلا (٥٣٣هـ — ٦١٨ هـ) درس وسيط الغزالى أربعين مرة للعامة سوى درس الخاصة .[٣]

ولقد عم النفع به ـ كما توقع الغزالى — أكثر من سابقه فبينما لا نجد إلا إشارة بسيطة لكتاب البسيط [٤] نجد إشارات كثيرة جدا لكتاب الوسيط ومادام المجال لا يسمح بالتوسع فى دراسة الوسيط فأشير فقط إشارة عجلى لآثار الكتاب فى الفكر الإسلامى ممثلا فى الدراسات والشروح والاختصارات التى قام بها كثير من العلماء من بينهم : —

(١) بدوى : مؤلفات الغزالى ص ٢٢ (نقلا عن الوسيط للغزالى) والغزالى : الإحياء ج ١ ص٣٦ (٢) السبكى :طبقات الشافعية ج ٥ ص ٧٥

(٣) السبكى : طبقات الشافعية ج ٥ ص ١٤٨

(٤) السبكى : طبقات الشافعية ج٥ ص ١٠٧

١ — محمد بن يحيى أشهر تلاميذ الغزالى (+ ٤٧٦ — ٤٥٨) فقد ألف كتابا فى شرح الوسيط أسماه المحيط فى شرح الوسيط . وتدوول الكتاب فى نيسابور وخراسان وغيرها [1] .

٢ — نجم الدين محمد بن الموفق الخبوشانى (+ ٥١٠ - ٥٨٧) تفقه على محمد بن يحيى تلميذ الغزالى وتأثر به فى حب التصوف فصار صوفيا، وفى كراهية الباطنية فهاجر لمحاربتهم فكريا إلى مصر أحدى مراكزهم الأساسية [2] .

ألف الخبوشانى كتابا فى شرح كتاب ابن يحيى لوسيط الغزالى أسماه (المحيط فى شرح الوسيط) بلغ (١٦) ستة عشر مجلداً وتدوول فى خبوشان ونيسابور ومصر، بل يقال إن عنايته بكتاب أستاذه بلغت حدا جعلته يحفظه عن ظهر قلب، وتمضى الرواية فتقول إنه عدم الكتاب مرة فأملاه من خاطره. [3]

٣ — أحمد بن نصر الأنبارى المعروف بالشمس الدنبلى (توفى سنة ٥٩٨) كان معتنياً بكتاب الوسيط للغزالى وعمل على نشره فى الموصل وبغداد . [4]

---

(١) ابن العماد : شذرات الذهب ج ٤ ص ١٥١ والسبكى : الطبقات ج ٤ ص ١٩٧ — ١٩٨

(٢) ابن العماد : شذرات الذهب ج ٤ ص ٢٨٨ والسيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٢٩ والسبكى : طبقات الشافعية ج ٤ ص ١٩٠ — ١٩١

(٣) السبكى : طبقات الشافعية الكبرى ج ٤ ص ١٩٠ - ١٩١ وابن العماد : شذرات الذهب ج ٤ ص ٢٨٨ والسيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٦٤

(٤) السبكى : الطبقات ج ٤ ص ٥٧

٤ — أسعد بن محمود الأصبهانى (+ ٥١٥ هـ — ٦٠٠) له كتاب شرح مشكلات الوسيط عمل على نشره بأصبهان[١]

٥ — قاضى القضاة عبد الصمد الحرستانى الدمشقى(+ ٥٢٠ هـ) أحد الأجلة من الفقهاء البارعين فى المذهب كان يحفظ وسيط الغزالى[٢]

٦ — محمد بن يونس بن محمد بن منعه الأدبلى (+ ٥٣٥ — ٦٠٨هـ) صنف المحيط فى الجمع بين المهذب والوسيط، وعمل على نشره فى الموصل وربما ببغداد أيضا[٣] .

٧ — القاسم بن عبدالله (+ ٥٣٥ هـ — ٦١٨ هـ) عمل على نشر وسيط الغزالى فى خراسان ونيسابور حتى ليقال إنه درس وسيط الغزالى أربعين مرة للعامة سوى درس الخاصة[٤]

٨ — السيف الآمدى على بن أبى على (توفى عام ٦٣١ هـ) حفظ وسيط الغزالى وعمل على نشره فى آمد ومصر وحماة ودمشق[٥]

٩ — ابن أبى الدم القاضى أبو إسحق (+ ٥٨٣ هـ — ٦٤٢ هـ) له شرح على الوسيط أسماه شرح مشكل الوسيط ، أو (اتضاح الأغاليط

---

(١) السبكى : الطبقات جـ ٥ ص ٥٠

(٢) السبكى : الطبقات جـ ٥ ص ٧٥

(٣) السبكى : طبقات الشافعية جـ ٥ص ٤٥ — ٤٦

(٤) السبكى : الطبقات جـ ٥ص١٤٨

(٥) ابن العماد شذرات الذهب جـ ٥ص١٤٤ — ١٤٥

الموجودة فى الوسيط) عمل على نشره فى حماة وبغداد والقاهرة وهمذان وحلب[٢]

١٠ — عثمان بن عبد الرحمن بن الصلاح (+ ٥٧٧ هـ —٦٤٣ هـ). من تصانيفه شرح مشكل الوسيط فى مجلد كبير وقد عمـــل على نشره بالموصل[٢]

١١ — قاضى حلب المعروف بابن الأستاذ(ولد سنة ٦١١ هـ أو ٦٢٩ هـ توفى سنة ٦٦١ هـ) صنف شرحا للوسيط فى عشره مجلدات وعمل على نشره فى حلب ومصر[٣]

١٢ — حمزة بن يوسف الحموى التنوخى(توفى سنة ٦٧٠ – ١٢٧١م له منتقى الغايات فى مشكلات الوسيط[٤].

١٣ — جعفر بن يحى التزمنتى (توفى سنة ٦٨٢ هـ ١٢٦٢ م) له شرح مشكل الوسيط عمل على نشره بمصر[٥]

---

(١) السبكى : الطبقات جـ ٥ ص ٤٧ وابن العماد : شذرات الذهب جـ ٥ ص ٢١٢ وعبد الرحمن بدوى مؤلفات الغزالى ص ٢٠ رقم ٧

(٢) ابن العماد : شذرات الذهب جـ ٥ ص ٢٢١ — ٢٢٢ وبدوى : مؤلفات الغزالى ص ٢٠ - ٢١ .

(٣) ابن العماد : شذرات الذهب جـ ٥ ص ٣٠٨ والسيوطى جـ ١ ص ٢٣٣ — ٢٣٤

(٤) بدوى: مؤلفات الغزالى ص ٢ رقم ٣

(٥) السيوطى : حسن المحاضرة جـ ١ ص ٢٣٦ والسبكى : الطبقات جـ ٥ ص ٥٤ .

١٤ — القاضى أبو بكر بن محمد (المتوفى سنة٦٨٨هـ - ١٢٦٨م)
أخذ (بعدن) الوسيط للغزالى عن الفقيه عبد الرحمن الابينى [١].

١٥ — على بن أحمد الأصبحى اليمنى (توفى سنة ٧٠٠هـ - ١٢٦٨م)
ألف كتابا أسماه معين أهل التقوى على التدريس والفتوى) عقد فيه فصلا لما فى تصانيف الغزالى والبحر وغيره من تصانيف الروبالى والرافعى وغير ذلك [٢]

١٦ — أحمد بن محمد بن الرفعة الملقب بالفقيه لغلبة الفقـــه عليه (٦٤٥هـ — ٧١٠هـ) صنف (المطلب فى شرح الوسيط) أو (منتقى الغايات فى شرح الوسيط) وكان شرحه حافلا مشتملا على نقول كثيرة وتخريجات واعتراضات والتزامات غير أنه يقال إنه مات ولم يكمله غيره [٣]

١٧ — عمر بن أحمد المدلجى النسائى (توفى سنة ٧١٠هـ أو ٧١٧هـ - ١٣١٧م)
كان فقيها مدرسا بالقاهرة ألف كتابا عن اشكالات الوسيط غير أنه توفى بمكة قبل أن يكمله [٤]

١٨ — أبو العباس أحمد بن على العامرى المعروف بالمدرس

---

(١) الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٢٥٢ .

(٢) السبكى : الطبقات جـ ٦ ص ١٤٢ — ١٤٣ .

(٣) السبكى : الطبقات جـ ٥ ص ١٧٧ — ٧٨ وبدوى: مؤلفات الغزالى ص ٢٠

(٤) السبكى : الطبقات جـ ٦ ص ٢٤٢ — ٢٤٣ وابن العماد: شذرات الذهب جـ ٦ ص ٤٤ .

(٦٤٠ هـ — ٧٢١ هـ) هو من أكثر فقهاء تهامة تدريساً وأكثرهم نشراً للعلم ، أقام فى المهجم وحدها نحواً من خمسين سنة تولى أثناءها قضاء المهجم كما ألف فى أثنائها عدة مؤلفات منها شرح الوسيط فى نحو ثمانية أجزاء[١]

١٩ — القاضى إبراهيم بن هبة الله الحميرى (توفى سنة ٧٢١ =) . ألف كتابا أسماه مختصر الوسيط عمل على نشره فى أخميم وأسيوط وقوص والقاهرة[٢] .

٢٠ — أحمد بن محمد المخزومى القمولى (توفى ٧٢٧هـ — ١٣٢٧م) ولى قضاء قوص ثم أسيوط والمنية والشرقية والغربية ثم تفرغ للتدريس والتأليف فدرس بالفخرية وشرح الوسيط للغزالى شرحاً مطولا بلغ أربعين مجلداً وكان فى شرحه هذا أقرب تناولا للوسيط من شرح ابن الرفعة (توفى ٧١٠ هـ — ١٣١٠ م) المشار إليه تحت رقم ١٦ وإن كان كثير الاستمرار منه وأكثر فروعاً منه أيضاً ، بل إنه كما يقول البعض : أكثر فروعا من أى كتاب ألف فى المذهب الشافعى وقد أسماه (البحر المحيط فى شرح الوسيط) ثم لخص شرحه هذا فى كتاب آخر أسماه جواهر البحر[٣] .

---

(١) الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٤٣٩ وابن العماد شذرات الذهب جـ ٦ ص ٦٧ .

(٢) السبكى : الطبقات جـ ٦ ص ٨٣ والسيوطى : حسن المحاضرة جـ ص ٢٢٩

(٣) ابن حجر : الدرر الكامنة جـ ١ ص ٣٠٤ رقم ٧٦٩ والسيوطى : حسن المحاضرة جـ ١ ص ٢٣٩-٢٤٠ وابن العماد : شذرات الذهب جـ ٦ ص ٧٦ والادفوى الطالع السعيد الجامع لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد ص ٦٤ وعبد الرحمن البدوى : مؤلفات الغزالى ص ٢٠ .

٢١ — محمد بن عبد الرحمن الريمى (توفى سنة ٧٤٨هـ ـــ ١٣٤٨م)
كان فقيها مجتهدا عالما ورعا نقالا للفقه ، إليه انتهت رئاسة الفتوى والفقه في الجند ونواحيها . . أخذ وسيط الغزالى عن الإمام أبى الحسن على بن أحمد الأصبحى[(١)] .

٢٢ — محمد بن عبد الحكم الباقيانى (توفى قبل سنة ٧٧٤٩ هـ فى الغالب له شرح على الوسيط لم يكمله[(٢)] .

٢٣ — شرف الدين ابراهيم بن بهاء الدين (توفى سنة ٧٥٧هـ ـ ١٣٢٧م) تتلمذ على عمه المناوى (+ ٦٥٥هـ ـ ٧٤٦هـ) ولما تخرج منه قام بالتدريس والإفتاء وألف كتابا شرح فيه فرائض الوسيط للغزالى[(٣)]

٢٤ — جمال الدين محمد السجزى ألف كتابا اسماه (البحر المحيط فى شرح الوسيط)[(٤)]

٢٥ — البيضاوى اختصر وسيط الغزالى فى كتاب اسماه (الغاية القصوى)[(٥)]

---

(١) الخزرجى : العقود اللؤلؤية ص ٨١ — ٨٢ .

(٢) السبكى : الطبقات جـ ٥ ص ٢٣٦ — ٢٣٧ والسيوطى : حسن المحاضرة جـ١ ص ٢١ .

(٣) السيوطى : حسن المحاضرة جـ ١ ص ٤٢١

(٤) بدوى : مؤلفات الغزالى ص ٢٠ .

(٥) بدوى : مؤلفات الغزالى ص ٢١ .

الوجيز للغزالى (١)

لقى هذا الكتاب من عناية الباحثين واهتمامهم مثل ما لقى سابقه فوضعت له شروح وشروح على الشروح وشروح على شروح الشروح كما وضعت عليه أو على شروحه اختصارات ودراسات نقدية إليك طرفا منها :

١ — أسعد بن محمود بن خلف العجلى الاصبهانى (+٥١٥هـ ـ ٦٠٠ ١٢٠٣م) ألف كتابا اسماه شرح إبهام الوسيط والوجيز(٢)

٢ — الإمام فخر الدين الرازى بن خطيب الرى (+٥٤٣هـأو ٥٤٤هـ وتوفى سنة ٦٠٦هـ) من مؤلفاته شرح كتاب الوجيز للغزالى(٣)

٣ — محمد بن يونس بن منعه الأربلى (٥٣٥ — ٦٠٨هـ) لهشرح على الوجيز عمل على نشره فى الموصل وربما ببغداد أيضا(٤)

٤ - عبد الكريم الرافعى القزوينى (توفى ٦٢٣هـ - ١٢٢٦م) من تصانيفه العزيز فى شرح الوجيز(٥) ومختصر العزيز فى شرح الوجيز(٦)

---

(١) الوجيز للامام مالك الغزالى طبع القاهرة سنة ١٣١٧ — ١٨٩٩ مطبعة المؤيد فى جزأين .

(٢) السبكى : الطبقات جـ ٥ ص ٥٠ وبدوى : مؤلفات الغزالى ص ٢٦

(٣) السبكى الطبقات جـ ٥ ص ٣٥ ، وطاشكبرى زادة مفتاح السعادة ص ٤٤٥ — ٤٥١ تحت علم التفسير رقم ١٠٧ وكاردوفو : الغزالى ترجمة عادل زعيتر ص ١١٢ سطر ٤ . (٤) السبكى : الطبقات ص٤٥ — ٤٦ .

(٥) ابن العماد :شذرات الذهب جـ٥ص٨٠ — ١٠٩ وبدوى مؤلفات الغزالى ص ٢٥ — ٢٦ . (٦) بدوى : مؤلفات الغزالى ص٢٧ .

والتهذيب فى الفروع هو عبارة عن زيادة وإكمالات على كتاب الوجيز للغزالى(١) .

٥ — عبد الرحيم بن محمد الموصلى (المتوفى سنة ٦٧١ هـ — ١٢٧٢ م) صنف كتابا حول كتاب الوجيز أسماه التعجيز(٢) .

٦ — النووى (المتوفى سنة ٦٧٦هـ — ١١٧٧ م) اختصر أحد شروح الرافعى على الوجيز فى كتاب أسماه روضة الطالبين(٣) .

٧ — أبو الثناء محمود بن أبى بكر الأرموى (٥٩٤ هـ — ٦٨٢ هـ) قيل إنه شرح الوجيز للغزالى(٤) .

٨ — أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن (٦١٩ هـ - ٦٨٨ هـ) تتلمذ على صالح بن على الحضرمى وولى قضاء الكدراء وعمل على نشر وتدريس كتاب الوجيز للغزالى(٥) .

٩ — عبد الرحمن بن إبراهيم الفزارى (توفى سنة ٦٩٠ هـ) له على الوجيز مجلدات(٦) .

١٠ — عبد الرحمن بن سعد (٦٣٦ هـ - ٦٩٠ هـ) كان كثير الحج والزيارة وهو أول من أدخل العزيز شرح الوجيز إلى الخيال(٧) .

---

(١) بدوى : مؤلفات الغزالى ص ٢٩ .

(٢) بدوى : مؤلفات الغزالى ص٢٩ .

(٣) السبكى: الطبقات جـ٥ص١٥٥ (٤) بدوى مؤلفات الغزالى ص ٢٧

(٥) الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص٢٥٠ .

(٦) السبكى : الطبقات جـ ٤ص ٦٠ .

(٧) الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص٢٦٢ وياقوت : معجم البلدان.

١١ – مفضل بن أبي بكر الخيارى الهمذانى (توفى سنة ٧١٤ هـ) تفقه على فقهاء تعز ولما تخرج عمل على نشر وتدريس الوجيز[١] .

١٢ – أبو عبدالله محمد بن حسين (توفى سنه ٧٢١ هـ) كان محفوظه من كتب الفقه الوجيز[٢] .

١٣ – ابراهيم بن هبة الله (توفى سنة ٧٢١ هـ) اختصر الوجيز للغزالى[٣] .

١٤ – على بن جابر الهاشمى اليمنى (توفى سنة ٧٢٥هـ) درس الوجيز على زكى البيلقانى[٤] .

١٥ – أحمد بن محمد بن سليمان الواسطى المشهور بجمال الدين الوجيزى (٦٤٣ هـ / ٧٢٧ هـ أو ٧٢٩ هـ) كان قد حفظ كتاب الوجيز للغزالى واعتنى به فعرف به[٥] .

١٦ – ابراهيم بن أحمد العلوى الغرافى (٦٣٨ – ٧٠٨ هـ) كان يحفظ كتاب الوجيز للغزالى وإيضاح أبى على وخرج لنفسه جزءاً[٦] .

هذا وللكتاب شروح واختصارات ودراسات أخرى كثيرة غير

---

(١) الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٤١٠ .

(٢) الخزرجى : العقود جـ ١ ص ٤٤٠ .

(٣) السيوطى : حسن المحاضرة جـ ١ ص ٢٢٩ .

(٤) ابن العماد : شذرات الذهب ٦ ص ٦٨

(٥) ابن حجر : الدرر الكامنة جـ ١ ص ٢٤٣ رقم ٦٢٦ والسيوطى : حسن المحاضره جـ ١ ص ٢٤٠ .

(٦) ابن حجر : الدرر الكامنة جـ ١ ص ١٠ رقم ١٢ .

أنه يلاحظ بوجه عام أن الوجيز لم يحظ بالعناية التى حظى بها الوسيط فى القرنين التاليين مباشرة للغزالى وإن لقى مثل هذه العناية وأكثر فى القرن الثامن والتاسع والعاشر والثانى عشر الهجرى ويمكن مراجعة ذلك لمزيد من المقارنة فى المراجع المشار إليها فى هامش الصفحات السابقة[١].

المستصفى :

أما المستصفى الذى أشرنا إليه سابقا أثناء حديثنا عن أصول الفقه فقد تناولته أقلام العلماء كذلك بالبحث والدراسة وقلوب المعجبين بالحفظ والعنايه غير أنه يلاحظ أن عناية الأندلسيين به كانت أكثر من عناية الشرقيين وإليك طرفا مما كتب هؤلاء وأولئك عن الكتاب :

١ - الوليد ابن رشد (ولد ٥٢٥هـ ١١٢٦م وتوفى عام ٥٩٥هـ ١١٩٨م) قام بوضع مختصر للكتاب أسماه اختصار المستصفى[٢] .

٢ - يحيى بن أحمد بن خليل (توفى سنة ٦٢٦ هـ) جلس للتدريس بأشبيلية فكان مجلسه أحفل مجلس وأجمعه لأشتات المعارف وشرح كتاب المستصفى لأبى حامد[٣] .

---

(١) رينات : ابن رشد والرشدية ص٤٥٧ وبدوى : مؤلفات الغزالى ص ٢١٧ .

(٢) رينات . ابن رشد والرشدية ص٤٥٧ وبدوى مؤلفات الغزالى ص ٢٢٧

(٣) أبو جعفر أحمد بن الزبير : ذيل كتاب الصلة لابن بشكوال ص١٩٣ ، ١٩٤ طبع الرباط سنة ١٩٣٠م .

٣ علي بن أبي علي المشهور بالسيف الآمدي (٥٥٠ هـ - ٦٣١ هـ) حفظ الوسيط للغزالي عن ظهر قلب وعمل على نشره في مصر وحماة وآمد وبغداد[١] .

٤ — أبو العباس أحمد بن الاشبيلي (المتوفى سنة ٦٥١ هـ) قام بوضع مختصر لكتاب المستصفى[٢] .

٥ — النسفي قام بشرح كتاب المستصفى للغزالي وأتم شرحه له في سنة ٦٥٦هـ - ١٢٦٦م[٣] .

٦ - عبد العظيم بن عبد الله المعروف بابن الشيخ المتوفى سنة ٦٦٦هـ أثر الغزالي على فكره وآثر كتاب المستصفى واعتنى به كما أثر على سلوكه فمال إلى التصوف والشغف به[٤] .

٧ — قاضي القضاة تقي الدين محمد بن الحسين العامري (٦٠٢هـ - ٦٨٠ هـ) حفظ الوسيط والمفصل والمستصفى للغزالي وعمل على نشرها في حماة ودمشق والقاهرة[٥] .

---

(١) السبكي: الطبقات جـ ٥ ص١٢٩ — ١٣٠ وطا شكبرى زاده : مفتاح السعادة جـ ٢ ص ٥٠ .

(٢) بدوي : مؤلفات الغزالي ص ٢١٧ .

(٣) بدوي : مؤلفات الغزالي ص ٢١٧ .

(٤) أبو جعفر أحمد بن الزبير : ذيل كتاب الصلة لابن بشكوال ص٣٥ — ٣٦ .

(٥) ابن العماد : شذرات الذهب جـ ٥ ص٣٦٨ - ٣٦٩ .

٨ - أبو الحسن بن عبد العزيز الفهرى (المتوفى سنة ٧٧٦ هـ) له شرح على مستصفى الغزالى[١] .

٩ - سليمان بن داود الغرناطى (المتوفى سنه ٨٢٢هـ) له تعليق على كتاب المستصفى للغزالى[٢] .

هذا وهناك كتب فقهية وأصولية أخرى للغزالى نالت إعجاب الدارسين وعنايتهم وإن لم يبلغ ذلك الاعجاب وتلك العناية مبلغ الكتب السابقة[٣] . غير أننى أرى أنه من المناسب أن أقف عند هذا الحد لأستشهد ببعض الأمثلة التى تجسم هذا الأثر الذى خلفه الغزالى فى توجيه الدراسات الفقهية وتنظيمها ودراستها ونقدها بل وفى التفكير الفقهى بصفة عامة :

١ - لما دخل الغزالى بغداد سنة ٤٨٤ هـ تواترت عليه الأسئلة عما إذا كان الطلاق واقعاً أو غير واقع فى حق رجل قال لامرأته (كلما طلقتك أو إن طلقتك فانت طالق قبل طلاقى ثلاثاً ثم طلقها) هى مسألة كان قد أثارها قبلا القاضى أبو العباس أحمد بن عمر بن سريج (المتوفى سنة ٣٠٦ هـ) فعرفت بالمسألة السريجية نسبة إليه .

---

(١) بدوى : مؤلفات الغزالى ص٢١٧ .

(٢) بدوى : مؤلفات الغزالى ص ٢١٧ .

(٣) الشيخ محمد نوب الجاوى ، شرح مراقى العبودية على بداية الهداية تم تأليفه سنة ١٢٨٩هـ طبع القاهرة سنة ١٨٨١ والفاكهى (٩٨٢ - ١٥٣٤) نفحات العناية بشرح بداية الهداية وأيضاً الكفاية فى شرح الهداية طبع مصر ١٢٩٦ هـ

ويبدو أنه كان هناك اتجاهان ، اتجاه ينادى بوقوع الطلاق والآخر لا يوقع الطلاق غير أنهم جميعاً تركوا للغزالى الفصل فى ذلك . . وما أن صرح الغزالى برأيه وأفتى بعدم وقوع الطلاق حتى استطارت فتواه وانتشرت بسرعة البرق فى جميع الأقطار فقضت بذلك على كل فتوى سبقتها ، كما عززت كل فتوى طابقتها ، على أن الغزالى لم يثبت على هذا الرأى بل غير اجتهاده فيه وأوقع الطلاق فى مثل هذه المسألة ولكن الذى يهمنا هنا ليس هو تقرير اجتهاد الغزالى وإنما هذه الأسئلة التى تواترت عليه أول دخول بغداد من ناحية واستطارة تلك الفتوى من ناحية أخرى إذ أن ذلك ألصق بموضوعنا هنا لأنه يؤكد الدور الفعال الذى كانت تلعبه شخصيته والأثر العميق الذى تخلفه فى النفوس أقواله وفتواه فتحقق لها الاطمئنان وتدفعها للثقة واليقين فى موضوع ظل مجال نقاش لفترة قاربت القرنين قبل الغزالى (٤٨٤ — ٣٠٦ هـ) [1] .

٢ — لعن وسب يزيد بن معاوية المتوفى ٦٤ هـ كان مثار جدل بين الفقهاء وعلى الأخص بين فقهاء الشيعة والسنة وكان من رأى بعض السنيين أنه يستحق اللعنة وقد أفتوا بذلك غير أن الغزالى رفض متابعة من سبقوه أو عاصروه فى فتواهم وصرح أكثر من مرة بأنه لا يجوز لعن

---

(١) ابن العماد : شذرات جـ ٢ ص ٢٤٧ والغزالى : غاية النور فى دراية الدور المتحف البريطانى رقم ٣١٠٢ والكتاب موضوع فى صدارة مجموعة بها ١٨ كتاباً ليست للغزالى ؛ وبدوى مؤلفات الغزالى ص ٥٠ إلى ٥٨ رقم ١٥ ص ٢٠٧ رقم ٥٨ والسبكى : الطبقات جـ ٤ ص ٩٦ — ٩٧ .

المسلم أصلا ومن لعن مسلما فهو الملعون ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلم ليس يلعن ، وكيف يجوز لعن المسلم ولا يجوز لعن البهائم ، وقد ورد النهى عن ذلك . وحرمة المسلم أعظم من حرمة الكعبة بنص النبى صلى الله عليه وسلم ، ويزيد صح إسلامه ، وما صح قتله الحسين رضى الله عنه ، ولا أمره به ، ولا رضاه ، ومهما لا يصح ذلك منه لا يجوز أن يظن ذلك به فإن إساءة الظن بالمسلم أيضاً حرام وقد قال تعالى « اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم . . » وبعد أن ناقش من قالوا بلعن يزيد قال : فإذن لا يجوز لعن أحد ممن مات من المسلمين ومن لعنه كان فاسقاً عاصياً لله تعالى ، ولو جاز لعنه فسكت ، لم يكن عاصياً بالإجماع ، بل لو لم يلعن إبليس طول عمره لا يقال له يوم القيامة لم تلعن إبليس ؟ ويقال للاعن لم لعنت ؟ ومن أين عرفت أنه مطرود ملعون ، والملعون هو البعيد من الله عز وجل ، وذلك غيب لا يعرف إلا فيمن مات كافراً ، فان ذلك علم بالشرع ، وأما الترحم عليه فجائز بل هو مستحب بل هو داخل فى قولنا فى كل صلاة اللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات فإنه كان مؤمنا والله أعلم[1] .

لقد أثرت هذه الفتوى تأثيرا واضحا فيمن أعقب الغزالى من العلماء فرددها ابن الصلاح واليافعى والقزوينى ومن أعقبهم من علماء السنة[2] — بل صارت منهجاً لأهل السنة من بعده حاولوا السير فيه وألف على

(١) ابن العماد : شذرات الذهب ج ٤ ص ٨ – ١٠ وبدوى : مؤلفات الغزالى ص ٤٧ – ٤٨ والغزالى بداية الهداية ص ٣٠ .

(٢) أبو شامه المقدسى : تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين ص ٦ طبع ١٣٦٦هـ – ١٩٤٧ م .

منواله ابن العربى كتاب (العواصم من القواصم) . . ولئن صح لى أن أخرج قليلا عن فكرة البحث أقول إن هذا المنهج ظل واضح الأثر حتى عصرنا هذا ، فالأزهر بمصر وجامعة أم درمان الإسلامية بالسودان كانا ولا يزالان يخوضان فى هذه المسائل وأشباهها بنفس روح التسامح التى بثها الغزالى ؛ وكثيراً ما كنت تسمعهم ينهون عن الخوض فى مثل هذه المسائل ، يقول الشيخ إبراهيم اللقانى الذى توفى (١٠٤١ هـ - ١٦٣١ م) فى كتابه جوهرة التوحيد :

وأول التشاجر الذى ورد . . إن خضت فيه واجتنب داء الحسد

قال إبراهيم البيجورى شارح الكتاب ولد ١١٩٨ هـ ١٧٨٤ م وتوفى سنة ١٢٧٧ هـ — ١٨٦٠ م) والمراد داء الحسد الحامل على الميل مع أحد الطرفين على وجه غير مرض [١] .

على أن هناك بالطبع من لم يرضهم هذا التسامح الذى أبداه الغزالى فى شأن يزيد بن معاوية وعليه فقد نادوا بلعنه متابعة لمن كان يرى ذلك من معاصرى الغزالى وغيرهم وأبرز من تبنى ذلك ونادى بمخالفة الغزالى فيه هو ابن الجوزى من المتأخرين (توفى ٥٩٧ هـ) والكيا السراسى من المعاصرين للغزالى (توفى ٥٠٤ هـ) [٢] .

٣ — من كلام السهروردى (٥٣٩ هـ) فى عوارف المعارف :

---

(١) البيجورى : تحفة المريد على جوهرة التوحيد ص ٩١ — ٩٢ طبع مصر سنة ١٣٠٤ هـ .

(٢) ابن العماد : شذرات الذهب ج ٤ ص ٨ — ١

إن الإمام إذا قال آمين فافتتح المأموم فى قراءة الفاتحة لا يسكت بل يشغل الامام بماروى (اللهم نقنى من الخطايا والذنوب . الحديث) إلى أن يتم المأموم الفاتحة . قال السبكى : وهذا تبع فيه الغزالى فإنه كذلك ذكر فى الإحياء وهو غريب والحديث يشهد لأن موضع ذلك قبل الفاتحة[١] .

٤ — الصيغة فى الشهادة على الزنا أوردها الشافعى فى حد الزنا فتابعه عليها أكثر الأصحاب ولكن ما أن جاء الغزالى فأوردها فى الشهادات بدلا عن حد الزنا حتى ترك الأصحاب اتباع نهج الشافعى فى ذلك وآثروا اتباع الغزالى فيها فاوردوها فى الشهادات اقتداء به[٢]

٥ — قال الإسنوى فى المهمات : إن غالب نقل الرافعى من سقة تصانيف غير كلام الغزالى المشروح : التهذيب والنهاية والتتمة والشامل وتجريد بن كج وأمالى أبى الفرج السرخسى[٣] .

٦ — كان صاحب زوائد الروضة يرى أن المصلى إذا تذكر فائتة وهناك جماعة يصلون الحاضرة والوقت متسع فالأولى أن يصلى الفائتة أولا منفرداً فجاء الغزالى وخالفه وصرح فى الإحياء بأن من فاته الظهر إلى وقت العصر إن وجد إماما فليصل العصر ثم ليصل الظهر فان الجماعة بالأداء أولى .

وقد تابع المتأخرون فى ذلك الغزالى وهجروا ما قاله صاحب الزوائد فمحمد ابن يونس مثلا (٥٣١ هـ) شارح الوجيز للغزالى ومؤلف المحيط

(١) السبكى : الطبقات جـ ٥ ص ١٤٤

(٢) السبكى : الطبقات جـ ٣ ص ٣٨ — ٤١

(٣) ابن العماد : شذرات الذهب جـ ٣ ص ٤٠٠ ، ٤٠

فى الجمع بين المهذب والوسيط قال : الأفضل تقديم الفائتة على الحاضرة إلا إذا ضاق وقت الحاضرة أو أدرك جماعة وعلل شرحه بخشية فوات الجماعة وهو نفس ما أفتى به الغزالى .

وكان موقف السبكى صاحب الطبقات (ولد ٧٢٧ وتوفى عام ٧٧١) شبيهاً بموقف محمد بن يونس إذ قال إن القلب أميل إلى كلام الغزالى منه إلى مافى الروضة [١] .

٧ ـ ماحكم من قال لزوجته أنت طالق على ألف إن شئت وقبلت ؟ : أترى يقع الطلاق إن شاءت دون أن تقبل أو قبلت دون أن تشاء أو لابد من أن تشاء وتقبل ، انقسم الفقهاء فى ذلك إلى ثلاث فرق كل تبنى رأيا .

فالذين قالوا بالمشيئة دون القبول أو القبول دون المشيئة استندوا إلى ماقاله الغزالى أو فهم من كتبه، وكذا من قالوا بالجمع بين المشيئة والقبول مما يشير إلى أهمية الغزالى كفقيه من ناحية ودقة الألفاظ القانونية التى درج على استعمالها من ناحية أخرى ، على أن السبكى يرى أن لفظ المشيئة يتضمن القبول وكذلك العكس وعليه فالخلاف غير ذى موضوع [٢] .

٨ ـ هل الإجماع حجة . . قضية أصولية أفتى الغزالى فيها بعدم حجيته ،قال لأن الشبه كثيرة فى كون الإجماع حجة قاطعة وإنما

---

(١) السبكى : الطبقات جـ ٥ ص ٤٥ ـ ٤٦ .

(٢) السبكى : الطبقات جـ ٥ص ٧٣ .

الإجماع عبارة عن التطابق على رأى نظرى . . .وتطابق أهل الحل والعقد على رأى نظرى واحد لايوجب العلم إلا من جهة الشرع .ولذلك لايجوز أن يستدل على حدوث العالم بتواتر الأخبار من النظار الذين حكموا به بل لاتواتر إلا فى المحسوسات . . وقد بنى الغزالى على ذلك فتواه فى عدم تكفير النظام (المتوفى ٢٣١ هـ - ٨٤٥ م) المنكر لأصل الاجماع [١] .

وبالرغم من أن رأى الغزالى هذا مخالف لمن سبقوه[٢] إلا أنه وجد ترحيبا من كثيرين من أصحاب المذاهب الفقهية ، فأيده كل من المالكية والشافعية والحنابلة وأما الحنفية فقد عارضوه ، وقد صور ذلك السبكى (٦٨٣ — ٧٥٦هـ) صاحب الفتاوى أحسن تصوير حيث استفتى عن الإجماع ، قال : الكلام فى ذلك تارة فى إمكانه وتارة فى حجيته والخلاف فى القسمين ومجموع الخلاف فى ذلك ثلاثة مذاهب :

(ا) قيل ممتنع .

(ب) قيل جائز وليس حجة وهو المرجع فى المذاهب الثلاثة .

(جـ) قيل حجة وهو المرجع عند الحنفية[٣] .

---

(١) الغزالى : الاقتصاد فى الاعتقاد ص ٢٥٣ ، ٢٥٤ ط ع أنقرة سنة ١٩٦٢م وطبع مصر سنة ١٣٢٠ ص ١١٣ وانظر البغدادى: أصول الدين طبع استانبول سنة ١٩٢٨ ص ١٩ — ٢٠ .

(٢) راجع رأى البغدادى فى ، أصول الدين ص ١٩ - ٢٠ وفى بعض كتبه الأصولية التى أشار إليها فى ص ٢٠ من كتابه المذكور .

(٣) أبو الحسن تقى الدين على بن عبد الكافى السبكى ، طبع مصر سنة ١٠٥٦هـ جـ ٢ ص ٦٣٩ ، ٦٤٠ .

٩ — خاض الغزالى فى فتاويه فى مسألة استئجار الذمى إذ سئل إذا أجر اليهودى نفسه مدة معلومة ما يكون حكم السبوت التى تخللها إذا لم يستثنها فإذا استثناها فهل تصح الإجارة لأنه يؤدى إلى تأخير التسليم عن العقد .

فأجاب : إذا اطرد عرفهم بذلك كان إطلاق العقد كالتصريح بالاستثناء وينزل استثناء السبت منزلة استثناء الليل فى عمل لا يتولى إلا بالنهار[١] .

وقد أثنى السبكى صاحب الفتاوى على هذه الإجابة فقال وهو كلام متين قويم[٢] ثم عاد فناقش ما أراده الغزالى بلفظ (إذا اطرد عرفهم) . . أترى الغزالى يعنى عرف المستأجر أم تراه يعنى عرف المؤجر . . وقد رجح هو حمل كلام الغزالى على عرف المستأجر والمؤجر جميعا سواء أكان المستأجر مسلما أم لا ، وأضاف : فلو كان عرف اليهودى مطردا بذلك ولكن المستأجر المسلم لم يعرف ذلك لم يكن إطلاق العقد فى حقه منزلا منزلة الاستثناء ، والقول قول المسلم فى ذلك إذا لم يكن من أهل تلك البلدة ولم يعلم من حاله ما يقتضى معرفته بذلك العرف ، وحينئذ فهل نقول إن العقد باطل أو يصح ويثبت له الخيار أو يصح ويلزم اليهودى بالعمل ؛ فيه نظر والأقرب الثالث لأن اليهودى مفرط بالاطلاق مع من ليس من أهل العرف[٣] .

(١) السبكى : فتاوى السبكى جـ ٢ ص ٦٢٦ .
(٢) السبكى : فتاوى السبكى جـ ٢ ص ٦٢٦ .
(٣) السبكى : فتاوى السبكى جـ ٢ ص ٦٢٦ — ٦٣٠

ثم مضى السبكى يناقش ألفاظ فتوى الغزالى واحدة بعد الأخرى ، وفى كل مرة يقف ليؤكد أن قول الغزالى هو الأولى بالاتباع[١] وأنه فى تأويله له لم يبعد عما يريد الغزالى به[٢] مما يشير إلى أن فتاوى الغزالى فى المسائل الفقهية كان لها دور أيما دور فى توجيه الدراسات الفقهية .

١٠ — كانت اليمن فى القرن السابع الهجرى شغوفة جدا بكتب الغزالى ولوعة بدراستها حتى إذا ما قدم إليها عالم من خارجها تساءلوا عما إذا كان هذا العالم له إلمام بكتب الغزالى أم لا فإن كان حمدوا له ذلك ورفعوه مكانا عليا بل افتخروا بالدراسة عليه[٣] وإلا ليم على جهله بها ولم يجد منهم ذلك الترحيب الذى كان سيجده لو كان له بكتب الغزالى إلمام ومعرفة . بل قد لا يشجعونه على الإقامة بينهم فيضطر للسفر من اليمن . . وحتى بعد سفره منهم تلاحقه لعنتهم كأن يشيعون أن المركب الذى سافر فيه غرق[٣] .

١١ — أفتى ابن الصلاح المتوفى ٦٤٣ هـ — ١٢٤٤م) أنه لا يكون مقرا من قال اشهدوا على بكذا فوقف على الفتوى بعض من يفتى بدمشق من الشافعية فأرسل إلى ابن الصلاح يستنكر عليه أن يجرؤ فيذكر شيئا خلافا لما فى الوسيط للغزالى . . ولما كان ابن الصلاح يدرك مدى النقد

---

(١) السبكى : الفتاوى جـ ٢ ص ٦٢٨ ، ٦٢٩

(٢) السبكى : الفتاوى جـ ٢ ص ٦٢٨ .

(٣) الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٢٥٠ ، ٤١١ ، ٤٤٠ ، ٢٥٢ ، ٤٢٩ ، ٨١ ، ٨٢ .

الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٣٧٥ — ٣٧٦ .

الذى سيلاقيه لو أعلن مخالفة للغزالى فى رأيه فقد حاول جاهدا أن يطمئن المستنكر بأنه لا خلاف يذكر بين ما أفتى به الغزالى وما أفتى به هو إذ المسألة التى أفتى فيها الغزالى فى الوسيط تختلف عما أفتى فيها هو غير أن ابن الصلاح بالرغم من ذلك لم يسلم من النقد، فقد فند السبكى حججه وأبان عدم صحة ما ذهب إليه من التفرقة وقال إنها مسألة واحدة الغزالى فيها المصيب وابن الصلاح المخطىء(١).

١٢ — محمد بن محمد الأنصارى الخزرجى من علماء القرن السابع الهجرى ومن تلاميذ ابن دقيق العيد (توفى ٧٠٢ هـ) كان معجبا أشد الإعجاب بالغزالى وكتبه وعلى الأخص كتاب الوسيط، ففى رأيه — وهو فقيه لكلمته اعتبار — أن الوسيط حوى من التفريعات الفقهية ما لم يحوه كتاب غيره.

ويذكر أصحاب الطبقات أنه عبر ذات مرة عن إعجابه بالوسيط بهذين البيتين من النظم فقال :

كتاب الوسيط تفاريعه أحاطت بجل خفىء النظر

فلله دار أبى حامد لقد كان روح علوم البشر

١٣ — انتقد الغزالى على الفقهاء ما ابتدعوه من علم الخلاف وفنون المجادلات وقال فى الإحياء : وأما الخلافيات التى أحدثت فى هذه الأعصار المتأخرة، وأبدع فيها من التحريرات، والتصنيفات والمجادلات ما لم يعهد مثلها فى السلف فإياك أن تحوم حولها واجتنبها

---

(١) السبكى : الطبقات جـ ٥ ص ١٤٠ - ١٤٢.

اجتناب السم القاتل فإنها الداء العضال ؛وهو الذى رد الفقهاء كلهم إلى طلب المنافسة والمباهاة[١] .. ثم قال : وهذا الكلام ربما يسمع من قائل فيقال الناس أعداء ما جهلوا فلا تظن ذلك فعلى الخبير سقطت فقبل هذه النصيحة ممن ضيع العمر فيه زمانا وزاد فيه على الأولين تصنيفا وتحقيقا وجدلا وبيانا ثم ألهمه الله رشده وأطلعه على عيبه فهجره واشتغل بنفسه فلا يغرنك قول من يقول الفقه عماد الشرع ولا يعرف علله إلا بعلم الخلاف فإن علل المذاهب مذكورة فى المذهب والزيادة عليها محاولات لم يعرفها الأولون ولا الصحابة ،وكانوا أعلم بعلل الفتاوى من غيرهم بل هى مع أنها غير مفيدة فى علم المذهب ضارة مفسدة لذوق الفقه فإن الذى يشهد له حدس المفتى إذا صح ذوقه فى الفقه لا يمكن تمشيته على شروط الجدل فى أكثر الأمر فمن ألف طبعه رسوم الجدل أذعن ذهنه لمقتضيات الجدل وجبن عن الإذعان لذوقه الفقه ،وإنما يشتغل به من يشتغل لطلب الصيت والجاه ويتعلل بأنه يطلب علل المذهب وقد ينقضى عليه العمر ولا تنصرف همته إلى علم المذهب فكن من شياطين الجن فى أمان واحترز من شياطين الإنس فإنهم أراحوا شياطين الجن من التعب فى الإغواء والإضلال[٢] .

وقال فى بداية الهداية : واحذر مخالطة متفقهة الزمان لا سيما المشتغلين بالخلاف والجدال ، واحذر منهم فإنهم يتربصون بك بحسدهم

(١) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٤ ص ٢٤٣ رقم الترجمة ٦٥٢ .
(٢) الغزالى : الاحيــاء ج ١ ص ٣٦ — ٣٧ والاحياء ج ٣ ص ٢٣٤ — ٢٣٩ .

ريب المنون ويقطعون عليك بالظنون ويتغامزون وراءك بالعيون يحصون عليك عثراتك فى عشرتهم حتى يجبهوك بهـــا فى غيظهم ومناظراتهم ، لا يقبلون لك عثرة ، ولا يغفرون لك زلة ، ولا يسترون عليك عورة ، يحاسبونك على النقير والقطمير ، ويحسدونك على القليل والكثير ، ويحرضون عليك الاخوان بالنميمة والبلاغات والبهتان ، إن رضوا فظاهرهم الملق وإن سخطوا فباطنهم الحمق ظاهرهم ثياب وباطنهم ذئاب ، هذا حكم ما قطعت به المشاهدة على أكثرهم إلا من عصمه الله تعالى ، فصحبتهم حسرات ومعاشرتهم خذلان هذا حكم من يظهر لك الصداقة فكيف من يجاهرك بالعداوة[1] .

هذا ماقاله الغزالى عن علم الخلاف والجدل وقد حرصت أن أذكره مع أنه طويل لأوضح أن رد الفعل الذى أحدثه النقد كان عنيفا جداً إلى درجة أنه قضى على علم الخلاف قضاء مبرما فلم يحظ بالحياة بعده إلا فترة قصيرة ألف الرازى وغيره فيها كتبا ثم انتهى العلم ولم يعد له مجال ولا عاد الفقهاء يتنافسون به ويتباهون بمعرفته . وقد سجل هذه الحقيقة الفاكهى وغيره بعد مقارنة بين ما كان عليه علم الخلاف والجدل فى عصر الغزالى من قوة وازدهار وما آل إليه بعد عصره من تلاش وزوال[2] وكشاهد على ذلك فهاك ماقاله ابن الجوزى المتوفى ٥٩٧هـ هذا وقد كان ابن الجوزى تابع الغزالى وتأثر به فى نقد علم الجدل فكان مما

---

(١) الغزالى : بداية الهدايه ص٤٤ وراجع أيضاً الاحياء ج٢ص٣٢٩ .

(٢) الفاكهى : الكفاية شرح البداية ص ١٥ .

قاله : ومن تلبيس إبليس على الفقهاء . أن جل اعتمادهم على تحصيل علم الجدل ويطلبون بزعمهم تصحيح الدليل على الحكم والاستنباط لدقائق الشرع وعلل المذاهب ولو صحت هذه الدعوى فيهم لتشاغلوا بجميع المسائل وإنما يتشاغلون بالمسائل الكبار ليتسع فيها الكلام فيتقدم المناظر بذلك عند الناس فى خصام النظر ، فهم أحدهم بترتيب المجادلة والتفتيش على المناقضات طلبا للمفاخرات والمباهاة وربما لم يعرف الحكم فى مسألة صغيرة تعم بها البلوى[1] .

١٤ — أنكر الغزالى تحريم السماع محتجا على ذلك بأن تحريمه لا يدل عليه نص ولا قياس وقال : لا وجه لتحريم سماع صوت طيب فاذا كان موزونا فلا يحرم أيضا وإذا لم يحرم الآحاد فلا يحرم المجموع فان أفراد المباحات إذا اجتمعت كان المجموع مباحا . وأضاف بأنه ينظر فيما يفهم من ذلك فان كان فيه شيء محظور حرم نشره ونظمه وحرم التصويت به .

وقد انتقد ابن الجوزى الغزالى فى ذلك فقال وانى لأعجب من مثل هذا الكلام فان الوتر بمفرده أو العود وحده من غير وتر لو ضرب لم يحرم ولم يطرب فاذا اجتمعا وضرب بهما على وجه مخصوص حرم وأزعج وكذلك ماء العنب جائز شربه وإذا حدثت فيه شدة مطربة حرم وكذلك هذا المجموع يوجب ضربا يخرج عن الاعتدال فيمنع منه لذلك[2]

---

(١) ابن الجوزى : تلبيس إبليس ص ١١٩ .

(٢) ابن الجوزى : تلبيس إبليس ص ٢٤٥ .

١٥ — عقد الغزالى فصلا عن أصناف المغرورين ، وبين أنهم أصناف : صنف اغتر بالعلم وهم فرق ، وآخرون بالعبادة والعمل وهم فرق وفريق ثالث بالتصوف وهم فرق وفريق رابع اغتر بالمال وهم فرق[١] وقد كان هذا الفصل هو الملهم الأول والأخير لابن الجوزى لتأليف كتابه المسمى تلبيس إبليس بل إن ابن الجوزى لا فضل له حتى فى اختيار اسم الكتاب إذ الكتاب أصلا من مقترحات الغزالى فقد قال فى الأحياء : وسنذكر جملة من مكائد الشيطان فى كتاب الغرور فى آخر هذا الربع (وهو فصل أصناف المغرورين الذى أشرت إليه هنا) . وأضاف الغزالى ولعلنا إن أمهل الزمان صنفنا فيه كتابا على الخصوص نسميه (تلبيس إبليس) فانه قد انتشر الآن تلبيسه فى البلاد والعباد لا سيما فى المذاهب والاعتقادات حتى لم يبق من الخيرات إلا رسمها.[٢]

ليس ذلك فحسب بل أن ابن الجوزى وهو يكتب عمن عنون لهم الغزالى ووعد بتأليف كتاب تلبيس إبليس عنهم لم يحد قيد شعرة عن الغرور الأساسى الذى انتقده الغزالى على هذا الفرق بل كان أحيانا يستعمل نفس أسلوب الغزالى .

وللتمثيل على ذلك أضع أمامك نصوصا تتصل بموضوعنا بعضها للغزالى والآخر لابن الجوزى وبالمقارنة ستدرك التلمذة الفكرية التى

---

(٢) الغزالى : الاحياء ج ٣ الصفحات ٢٣٤ — ٢٥٦ .

(٢) الغزالى : الاحياء ج ٣ ص ٢٦ سطر ١٢ .

يدين بها ابن الجوزى للغزالى مما يجعله فى مصاف تلاميذ الغزالى إن لم يكن يتصدرهم و يتقدمهم .

(أ) ١ — قال الغزالى : وفرقة غلب عليها الوسوسة فى نية الصلاة فلا يدعه الشيطان حتى يعقد نية صحيحة بل يشوش عليه حتى تفوته الجماعة ويخرج الصلاة عن الوقت وإن تم تكبيره فيكون فى قلبه بعد تردد فى صحة نيته وقد يوسوسون فى التكبير حتى قد يغيرون صيغة التكبير لشدة الاحتياط فيه يفعلون ذلك فى أول الصلاة ثم يغفلون فى جميع الصلاة فلا يحضرون قلوبهم ويغترون بذلك ويظنون أنهم إذا اتبعوا أنفسهم فى تصحيح النية فى أول الصلاة وتميزوا عن العامة بهذا الجهد والاحتياط فهم على خير عند ربهم[١]

٢ — قال ابن الجوزى : ومن ذلك تلبيسه عليهم فى نية الصلاة فمنهم من يقول أصلى صلاة كذا ثم يعيد هذا ظنا منه أنه قد نقض النية والنية لا تنقض وإن لم يرض اللفظ ومنهم من يكبر ثم ينقض ثم يكبر ثم ينقض فاذا ركع الإمام كبر الموسوس وركع معه — فليت شعرى ما الذى احضر النية حينئذ وما ذاك إلا لأن ابليس أراد أن يفوته الفضيلة[١].

ومن الموسوسين من إذا صحت له النية وكبر ذهل عن باقى صلاته كأن المقصود من الصلاة التكبير فقط وهذا تلبيس يكشفه أن التكبير يراد للدخول فى العبادة فكيف تهمل العبادة وهى كالدار ويشتغل على التشاغل

---

(١) الغزالى : الاحياء ج ٣ ص ٣٤٥ .

(٢) ابن الجوزى : تلبيس إبليس ص ٢٧ — ١٢٨

بحفظ الباب [١]

(ب) ١ — قال الغزالى : لما أفضت الخلافة : إلى أقوام تولوها بغير استحقاق ولا استقلال بعلم الفتاوى والأحكام اضطروا إلى الاستعانة بالفقهاء وإلى استصحابهم فى جميع أحوالهم لاستفتائهم فى مجارى أحكامهم وكان قد بقى من علماء النابغين من هو مستمر على الطراز الأول وملازم صفو الدين ومواظب على سمت علماء السلف فكانوا إذا طلبوا هربوا وأعرضوا فاصطر الخلفاء إلى الالحاح فى طلبهم لتولية القضاء والحكومات فرأى أهل تلك الاعصار عز العلماء وإقبال الأئمة والولاة عليهم مع إغراضهم عنهم فاشرأبوا لطلب العلم توصلا إلى نيل العز ودرك الجاه من قبل الولاة فأكبوا على علم الفتاوى وعرضوا أنفسهم على الولاة وتعرفوا إليهم وطلبوا الولايات والصلات منهم فمنهم من أنجح .. وقد كان أكثر الإقبال فى تلك الأعصار على علم الفتاوى والاقضية لشدة الحاجة إليها فى الولايات والحكومات ثم ظهر بعدهم من الصدور والامراء من يسمع مقالات الناس فى قواعد العقائد ومالت نفسه إلى سماع الحجج فيها فعلمت رغبته إلى المناظرة والمجادلة فى الكلام فأكب الناس على علم الكلام .. ومالت نفسه فى الفقه .. فترك الناس الكلام . وفنون العلم وانثالوا على المسائل الخلافية [٢]

---

(١) ابن الجوزى : تلبيس إبليس ١٣٩ ، وراجع المنتظم لابن الجوزى ج ٩ ص ١٠٠ وفيات سنه ٤٨٩ وانظر ابن عباد الرندى : الرسائل الصغرى طبع بيروت سنة ١٩٥٧ م ص ٨٧ — ٨٩ .

(٢) الغزالى : الاحياء ج١ص ٣٧ — ٣٨ .

٣ — وقال ابن الجوزى . كان علماء السلف يبعدون عن الأمراء لما يظهر من جهودهم فتطلبهم الامراء لحاجتهم اليهم فى الفتاوى والولايات فنشأ أقوام قويت رغبتهم فى الدنيا فتعلموا العلوم التى تصلح للامراء وحملوها اليهم لينالوا من دنياهم ويدلك على أنهم قصدوا بالعلوم الامراء أن الامراء كانوا قديما يميلون إلى سماع الحجج فى الاصول فاظهر الناس علم الكلام ثم مال بعض الامراء إلى المناظرة فى الفقه فمال الناس إلى الجدل [١].

الخلاصة

هذا هو الغزالى الفقيه وذلك هو أثره ودوره فى الفقه ولعلك توافقنى فى أنه إذا لم يشتهر بالحكمة والتصوف وعلم الكلام لاشتهر بالفقه فان الفقه كان الامر الذى اتجه اليه فى صدر حياته العملية ولم يتركه حتى فى حياة التصوف التى عاشها من بعد [٢] يدل على ذلك أنه ألف كتاب المستصفى فى الفترة التى عاشها بعد حياة العزلة والعودة إلى التدريس بنظامية نيسابور (٤٩٩ — ٥٠٣) [٣] على أنه من المناسب أن نذكر أن الغزالى بالرغم من أنه صرف فترة طويلة من حياته فى الفقه كان لا يرضى أن يطلق عليه لفظة فقيه لكراهيته لما كان عليه الفقهاء آنذاك

---

(١) ابن الجوزى : تلبيس إبليس ص ١٢٢ .

(٢) أبو زهرة : الغزالى الفقيه ص ٥٢٧ .

(٣) الغزالى : المستصفى ج ١ ص ٣ — والسبكى : الطبقات ج ٣ ص ٢٥٩ وابن الأثير : اللباب فى تهذيب الانساب ج ٢ ص ١٧٠ طبع القاهرة سنة ٣٥٦ هـ .

من الحسد والتناقص والرياء والتكبر ومحبة السلاطين وما إليها من ناحية[١] وانصرافهم عن علوم الآخرة وإعراضهم عنها من ناحية أخرى يروى أن الجوينى أستاذ الغزالى قال يوما للغزالى : (يا فقيه فرأى فى وجهه التغيير) [٢]

هذا وأثر الغزالى لم يقتصر على ماذكرنا فى تكييف حياة الأشخاص وإدارة حياتهم على منهج خاص ووفق تعاليم معينة بل تعدى دوره الأشخاص إلى المجتمع فهزه هزاً عنيفاً صفى به ماخالطه قليلا من أدران ومالصق به من ظلمات وحجب بفعل المدارس الفكرية المختلفة التى لعبت دورها فى الفكر قبله فكثفت عليه الرؤية إن لم تكن غطتها وسيرته وفق ماتشاء هى لا ما يشاء الحق حتى اختلطت عليه الأمور وتضاربت لديه الآراء فصار لا يميز بين الحق والباطل أو قل صار لا يقيم وزنا للحق بقدر ما يقيم كبير وزن الرجال الذين يتبع مدارسهم ويقتفى خطاهم وينتهج مناهجهم .

ولقد جاء الغزالى فى فترة سيطرت فيها الماديات على التفكير وانزوت فيها الروحيات من المسرح ، وصار المظهر العام للدين هو المظهر المادى سواء فى العبادات أو المعاملات فالصلاة مثلا فى عصر الغزالى تصح إذا أتى فيها الشخص بصورة الأعمال مع ظاهر الشروط وإن كان غافلا

---

(١) الماكى : الكفاية شرح بداية النهاية ص ١٥٠ — ١٥١ ، ١٠١ ، ١١٤ والغزالى : بداية الهداية والاحياء وابن الجوزى تلبيس إبليس .

(٢) السبكى : طبقات الشافعية ج ٣ ص ٢٥٩ .

فى جميع صلاته من أولها إلى آخرها مشغولا بالتفكير فى حساب معاملاته فى السوق إلا عند التكبير [١] ومثل الصلاة فى ذلك الزكاة والحج والجهاد والقضاء وغيره من بقية العبادات والمعاملات . وكنت إذا سألت فقيها عن معنى خارج من نطاق الظاهر كالأخلاق مثلا أو سألته عن التوكل أو عن وجه الاحتراز عن الرياء لتوقف فى ذلك مع أنه فرض عينه الذى فى إهماله هلاكه فى الآخرة أما لو سألته عن معنى من معانى الظاهر كاللعان والظهار والسبق والرمى وغيرها مما يدخل تحت العبادات والمعاملات والعادات لسرد عليك مجلدات من التفريعات الدقيقة التى تنقضى الدهور ولا يحتاج إلى شىء فيها ، وإن احتيج لم تخل البلد ممن يقوم بها ويكفيه مئونة التعب فيها وكان لايزال يتعب فى حفظها ودرسها ويغفل عما هو مهم نفسه فى الدين وإذا روجع فيه قال اشتغلت به لأنه علم الدين وفرض الكفاية وربما استدل بقوله صلى الله عليه وسلم من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين ، وناسياً أو متناسياً أن الحديث إن صح فتفسيره لمعنى الفقه لا يصح لأن المراد بالفقه فى العصر الأول هو علم طريق الآخرة ومعرفة دقائق النفوس ومفسدات الأعمال وقوة الإحاطة بحقارة الدنيا وشدة التطلع إلى نعيم الآخرة واستيلاء الخوف على القلب [٢] دون تفريعات الطلاق والعتاق واللعان والسلم

---

(١) الغزالى : الاحياء جـ ١ ص ١٧ وانظر ابن الجوزى : المنتظم جـ ٩ ، ١٠٠ .

(٢) الغزالى : الإحياء جـ ١ ص ٣٨ .

والاجارة فذلك لايحصل به إنذار ولاتخويف بل التجرد له على الدوام يقسى القلب وينزع الخشية منه [١] .

ولقد ساعد الفقهاء على سلوك هذا السبيل واختيار هذا الطريق ما يأملون فى سلوكه من تقرب للسلطان واستيلاء على المناصب العالية والأمكنة السامية مما يدر عليهم دخلا وفيراً [٢] وشهرة واسعة لايحصلون عليها إذا ما سلكوا طريق الزهد وترك الرياء والإخلاص فى العبادات والمعاملات مع تجنب لكل آفات القلوب وأمراضها وحيل النفوس وخداعها واستدراجها [٣] .

أما الصوفية الذين عاصروا الغزالى ، أو قل : أما من آثروا جانب الروحيات على الماديات فى عصره فكانوا بالرغم من قلة عددهم مجالا خصباً وقع فيه أصحاب الدعاوى الطويلة العريضة فى العشق مع الله تعالى والوصال المغنى عن الأعمال الظاهرة حتى انتهى قوم إلى دعوى الاتحاد وارتفاع الحجب والمشاهدة بالرؤية والمشافهة بالخطاب [٢] . . وترك جماعة من أهل الفلاحة فلاحتهم وأظهروا مثل هذه الدعاوي لما فيها من البطالة التى يستلزمها الطبع والتى قد تصاحبها كلمات مخبطة مزخرفة [٤]

وكنت إذا سألتهم أو أنكرت عليهم لم يعجزوا أن يقولوا هذا

---

(١) الغزالى : الاحياء جـ ١ ص ٢٨

(٢) الغزالى الإحياء جـ ١ ص ٣٧ .

(٣) الغزالى الإحياء جـ ١ ص ١٩ وقارن ابن الجوزى المنتظم جـ ٩ ص ١٤٧ — ١٤٨ .

(٤) الغزالى الاحياء جـ ١ ص ١٩ . (٢) الغزالى الإحياء جـ ١ ص ٣٣ .

إنكار مصدره العلم والجدل والعلم حجاب والجدل عمل النفس وهذا الحديث لا يلوح إلا من الباطن بمكاشفه نور الحق[١].

أخلص من ذلك إن أن كلا الفريقين السابقين عصرا الغزالى وأثرا فى الحياة الفكرية والاجتماعية حتى شب فريق أشرب قلبه عن جهل كراهية الفقهاء أهل الظاهر وشب آخرون أشربت قلوبهم عن جهل كراهية التصوف أهل الباطن وعلى هذا بعدت الشقة بين الفريقين وتوسعت الهوة بين الجانبين وتأصلت الكراهية بين الطائفتين ، كل ينسب الآخر لغير سلوك الطريق المستقيم ويأنف أشد الأنف من أى يسير ولو إلى الله يوم الحشر بصحبته لأن جانبهم فى نظر غيره مأمن والسير معهم خطر[٢].

كان ولا بد ، والحال كما ، وصفنا أن يلتفت الغزالى لهذا الجانب ويوليه عنايته واهتمامه ويزيل من أذهان الفقهاء وتابعيهم ما وصموا به التصوف ومن أذهان الصوفية وتابعيهم ما وصموا به الفقه ، ويرد الجميع إلى المنبع الثر والمصدر الأصلى الذى ينادى بأداء العبادة الصحيحة فى الظاهر مع أدائها كاملة تامة فى الباطن ،ذلكم هو القرآن الكريم والسنة النبوية الطاهرة ، وقد فعل الغزالى ذلك وكرس جهده لإظهاره وتبيينه فلم تلبث تعاليمه أن أثمرت فى قلب المفهومات القديمة إلى ما كانت عليه سابقاً فى العصر الأول فلم يعد الفقه ذلك العلم الذى يعنى بالظاهر

---

(١) الغزالى الاحياء جـ ص٣٢

(٢) كنون النبوع المغربى ص١٢٠

ولم يعد التصوف ذلك الشيء الذى يهتم بالباطن ويهمل الظاهر بل تصاحب الفقه والتصوف وتصالحا وتسالما ليخدما غرضاً واحداً أراده القرآن من المؤمنين وهدفاً معيناً طلبه الله من العبد وعبرت عنه آيات كثيرة من بينها « قد أفلح المؤمنون الذين . هم فى صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون . والذين هم للزكاة فاعلون . والذين هم لفروجهم حافظون . إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين »[1] .

والدارس المقارن يلاحظ مدى الأثر العميق الذى أحدثه الغزالى فى الفكر بشأن التصوف ، فالطرق الصوفية مثلا — كما ذكرت — لم تبدأ إلا بعد الغزالى بل إن الأسماء المشهورة اللامعة كان معظمها فى الفترة التى أعقبت الغزالى لا فى الفترة التى سبقته ، وإن كان لى أن أشير إلى كتاب خاص تسهل به المقارنة فلا بأس أن أشير إلى كتاب شذرات الذهب لابن العماد وهو كتاب يقوم تاريخه على التدرج السنوى مما يسهل على الباحث الدارس عملية المقارنة بين الفترة السابقة للغزالى والفترة التى أعقبته ، ولقد تعمدت فى بعض بحثى هنا أن أشير إلى عدد عن الأسماء الصوفية اللامعة لترى كيف أن الغزالى قد أثمرت مجهوداته فى هذا الميدان ونجحت مساعيه فى إنقاذه من الهوة التى كان ربما تردى فيها لولاه أو قل من الهوة التى ربما تردى فيها الفريقان لولا الغزالى وتعاليمه .

( ) قارن الاحياء جـ ١ ص ١٠٨ دير حنا قمر : الغزالى جـ ١ ص ١٥ والفاكهى . الكفاية شرح البداية للغزالى طبع القاهرة ١٨٧٩ م ص ١٥٦ وأحمد أمين : ظهر الاسلام جـ ٢ .

الفصل السادس

دور الغزالي في الفكر بصفة عامة

الغزالي — كأرسطو — عالم من أعلام الفكر الإنساني الذين بلغوا في حياتهم وبعد مماتهم أرفع مكانة بين الناس ، ومن ثم كان طبيباً أن تتعاون الحقيقة والأسطورة معاً على نسبة حشد هائل من الكتب إليه حتى ليقول السبكي أن مؤلفاته قسمت على أيام حياته نخص كل يوم أربعة كراريس .

وقد عني العلماء الباحثون منذ منتصف التاسع عشر حتى الآن بدراسة هذه المؤلفات توطئة لتمييز الصحيح منها والمنحول .

وكان أول من بدأ البحث في هذا الجانب د . جوسنه . ثم أعقبه كل من مكدونالد وأغناطيوس جولدسهير وجيردنر ، ثم نداهم اسين بلاثيوس ، ومونتجمرى ، وجورج حوراني ، وموريس بويج وميشيل الارف ثم عبد الرحمن بدوى .

وقد كان عمل بعض هؤلاء المذكورين مزووجاً إذ حاولوا ترتيب كتب للغزالي تاريخياً بالإضافة إلى ماأشرنا إليه من محاولة تمييز أحقية نسبة الكتب للغزالي .

وكان أهم ما تناوله الغزالي في هذه المؤلفات العربية منها والفارسية ما يأتي :

١ — الفقه وأصوله .　　　　٢ — الرد على الباطنية .

٣ — المنطق والفلسفة والرد على الفلاسفة .

٤ — علم الكلام[١] .

٥ — التصوف .

٦ — دراسات أخرى متفرقة .

ولما كان الغزالى متبحراً فى كل فن من هذه الفنون[٢] التى تعرض إليها فقد اعتبرت كتبه عمدة ذلك الفن ، فالشافعية مثلا بنوا كثيراً من آرائهم الفقهية على ما قرره الغزالى فى البسيط والوسيط والوجيز وكذلك فعل الأشعرية والمتصوفة بل إن بقية الفرق الإسلامية انتفعت بكتبه فى الأصول والفلسفة والمنطق . وكان السائد الراجح عند الجميع كما يصوره العيدروس أنه لا شيء أنفع للقلب وأقرب إلى رضا الرب من متابعة الغزالى ومحبة كتبه فإن كتب الإمام الغزالى لباب الكتاب والسنة ولباب المعقول والمنقول[٣] يقول :

هكذا أجمع العلماء العارفون بالله[٤] . ورأينا فى الفصول السابقة أن انتفاع خصومه الفكريين[٥] لم يكن أقل من انتفاع أنصاره ومؤيديه كيف بل لقد بلغ من إعجاب الناس بكتبه أن ذكروا أن رسول الله

---

(١) يرى السبكى أن ليس للغزالى أى كتاب فى علم الكلام مع ان له إلجام العوام والاقتصاد فى الاعتقاد ولا أرى كيف فاتت عليه هذه الكتب .

(٢) الإحياء جـ ١ ص ٢٦ والمنقذ .

(٣) العيدروس : تعريف الأحياء بفضائل الإحياء (هامش إحياء علوم الدين للغزالى ص ٧) .

(٤) نفسه ١٧

(٥) راجع ابن الجوزى : تلبيس إبليس .

صلى الله عليه وسلم نفسه أعجب بها أكثر من إعجابه بكل كتب أئمة المذاهب المشهورين[١] .

وقد كان من الطبيعي وشهرة الغزالي كما ذكرنا وأثره كما أشرنا أن تجد كتبه إقبالا منقطع النظير من جميع الطوائف الإسلامية في مختلف الأقطار على اختلاف الأزمنة وتباعدها[٢] . حتى ليقول عنها بعضهم . كاد الإحياء أن يكون قرآنا[٣] ويقول فريق آخر من أراد طريق

---

(١) ابن عساكر : تبين الكذب ص ٣٠٤

(٢) الخزرجي ، العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٨٠ ، ٨٢ ، ٢٩. ، ٢٥٠ ، ٢٦٢ ، ٤١١ ، ٤٢٢ ، ٤٣٩ ، ٤٤٠ الغزالي : الدرر مخطوط ص ١ بمجموعة اسمها طبقات الفقهاء بالمتحف البريطاني ، والسبكي . طبقات الشافعية ص ٤٢ ؛ ٢٣٦ ، ٢٥ ، ١٥٥ ، ٦٠ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٥٠ ، ٤٧ ، ١٧٧ ، ٠٧٨ ، ٢٤٠ ، ١٢٩ ، ١٣٠ وج ٤ ص ١٩٠ — ١٩١ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ج ٤ ص ٥٧ ، وج ٦ ص ٦٨ ، ٢٤ ، ١٤٣ ، ٢٤٢ ، ٣٤٢ ، ٨٣ ، ١٠٦ وصلة الصلة وهو ذيل الصلة لابن بشكوال في تراجم أعلام الأندلس القسم الأخير ص ٣٥ ، ٣٦ ، ١٩٣ — ١٩٤ طبع الرباط سنة ١٩٣٨ م وطاشكبرى زاده مفتاح السعادة ص ٤٤٥ — ٤٥١ رقم ١٩٧ تحت علم التفسير : شذرات الذهب ج ٦ ص ٤٤ ، ٦٧ ، ٧٥ ، ٧٦ ، وص ٢٤٩ ، وج ٤ ص ٦١ ، ٦٢ ، ١٥١ ، ٢٨٨ ، وج ٥ ص ٢٠٣ ، ٢١٠ ، ٢٢ وحسن المحاضرة ج ١ ص ٢٣٩ ، ٢٢٩ ، ٢٣٣ ٢٣٤ ، ٢٣٦ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ والدرر الكامنة ج ١ ص ٣٠٤ ، والأدفوى : الطالع السعيد الجامع لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد ص ٦٤

(٣) العيدروس : تعريف الأحياء بفضائل الإحياء هامش إحياء علوم الدين ج ١ ص ١٥ وهناك طبعة مستقلة لنفس الكتاب ص ٧ طبع القاهرة ١٢٨٧ / ١٩٦٨ م. العيدروس : تعريف الأحياء بفضائل الأحياء هامش أحياء علوم الدين للغزالي ج ١ ص ١٧ — ١٨

الله وطريق رسول الله وطريق العارفين بالله وطريق العلماء بالله أهل الظاهر والباطن فعليه بمطالعة كتب الغزالى خصوصاً إحياء علوم الدين. فهو البحر المحيط[١] .

ولقد بلغ الاعجاب والتقدير لكتب الغزالى أن حفظوا بعضها عن ظهر قلب وتسموا بأسمائها[٢] وكتبوها بماء الذهب واعتبروها مقياساً للفهم والثقافة[٣] ،ويراسل منها الأدباء فى نثرهم[٤] وشعرهم[٥] . بل قسمهـــا البعض ثلاثين جزءاً كالقرآن وما يتلوها بدلا عنه فى رمضان[٦] .

---

(١) العيدروس : تعريف الاحياء بفضائل الاحياء هامش إحياء علوم الدين للغزالى جـ ١ ص ١٥ والخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٤٤٠ وطاشكبرى زاده : مفتاح السعادة جـ ٢ ص ٥٠ ؛ ٥١ وابن العماد : شذرات الذهب جـ ٥ ص ١٤٤ ؛ ١٤٥ ، ٣٦٨ ، ٣٦٩ وابن حجر : الدرر الثامنة جـ ١ ص ١٠ رقم ١٢ ، جـ ١ ص ٢٤٣ ، رقم ٦٢٦ ، جـ ٤ ص ٢٤٣ رقم ٦٥٢ والسبكى : طبقات الشافعية الكبرى جـ ٥ ص ٧٥ ؛ ١٢٩ ، ١٣٠

(٢) السيوطى : حسن المحاضرة ١/٢٤٠ والسبكى طبقات الشافعية الكبرى ٥/١٤٨ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ .

(٣) الخزرجى ، العقود اللؤلؤية فى تاريخ الدولة طبع مصر سنة ١٩١٤ ؛ ١/٢٧٥ ، ٢٧٦ والسبكى طبقات الشافعية ٥/٧٥ ، ١٤١ ، ١٤٢ .

(٤) السبكى طبقات الشافعية الكبرى ٦/ ٦

(٥) وفاة الوفيات ١/ ٣٨٠

(٦) كنون ، النبوع المغربى فى الأدب العربى ١/ ٧

١ — احياء علوم الدين :

لقد كان الإحياء المشار إليه فى معظم النصوص التى ألمعنا إليها أعظم وأكبر كتاب ألفه الغزالى بعد اعتزاله التدريس فى نظامية بغداد وهو وإن كان كتابا صوفيا[١] إلا أنه ألفه على نمط الفقه ليستدرج به معاصروه ممن أولعوا بالفقه وشغفوا بكتبه[٢] مثله فى ذلك مثل كتابه الصوفى (منهاج العارفين) الذى ألفه على النمطين الفقهى[٣] والنحوى[٤] لمراعاة أحوال المخاطبين . حظى هذا الكتاب خاصة وكتب الغزالى عامة بقسط وافر من الشروح والاختصارات والنقد . ولما كنت بصدد الحديث عن تأثير الغزالى فى الفكر أرى من المناسب أن أشير فى إيجاز ما خص به من شروح واختصارات ونقد ورد :

١ — محمد الغزالى (توفى ٥٠٥ ﻫ — ١١١١م) : الاملاء على مشكل الإحياء مطبوع[٥] .

٢ — أحمد الغزالى (توفى ٥٢٠) : لباب إحياء علوم الدين مطبوع القاهرة ١٣٢٨ ﻫ[٦] .

---

(١) الغزالى ، إحياء علوم الدين ١/٤

(٢) الغزالى ، منهاج العارفين ص ٢ فما بعدها وراجع الشك فى نسبة الكتاب للغزالى فى بدوى مؤلفات الغزالى ص ٢٤٨/٢٥٠ رقم ٧٧

(٣) الغزالى : المتصوف . من علم الأحوال حـ ص ٤ طبع مصر سنة ١٣٢٠ ﻫ.

(٤) الغزالى : منهاج العارفين ص ٢، ٣ وراجع الشك فى نسبة الكتاب للغزالى. فى عبد الرحمن بدوى مؤلفات الغزالى رقم ٧٧ ص ٢٢٨ — ١٥٠

(٥) بدوى : مؤلفات الغزالى ص ١١٢ ، ٢١٧ وحاجى خليفة : كشف الظنون جـ ٨ عمود ٢٤ (٦) بدوى مؤلفات الغزالى ص ٤١ والسبكى طبقات الشافعية الكبرى جـ ٤ ص ٥٤ — ٥٥

٣ — ابن عمر المازرى (توفى ٥٣٦ — ١١٤١ م) الكشف والأنباء عن المترجم بالأحياء مجهول السنة[١] .

٤ — يوسف اليمنى (توفى ٥٥٨ هـ) : روح الأحياء مخطوط .

٥ — محمد اليمنى (توفى ٥٩٥ هـ) : مختصر الإحياء .

٦ — ابن الجوزى (توفى ٥٩٧ هـ - ١٢٠٠ م) منهاج القاصدين مخطوط . إعلام الأحياء بأغلاط الإحياء .

٧ — أحمد الموصلى (٦٢٢ هـ) مختصر الإحياء .

٨ — أحمد الموصلى مختصر الاحياء (أصغر من الأول) .

٩ — مجهول المؤلف (٦٣٣ هـ) ترجمة فارسية للأحياء فى عهد السلطان التمشى ووزيره الجنيدى[٢] .

١٠ — محمد الخوارزمى (توفى ٦٧٩ - ١٢٨٠) : روح الأحياء مخطوط[٣] :

١١ — ابن تيمية (توفى ٧٢٨ هـ) : قاعدة فى الرد على الغزالى فى التوكل[٤] .

١٢ — أحمد المقدسى (توفى ٧٤٢ - ١٣٤١) : المخلص مطبوع بدمشق سنة ١٣٤٧ هـ[٥] .

---

(١) بدوى : مؤلفات الغزالى ص ١١٤

(٢) بدوى : مؤلفات الغزالى ص ١١٩

(٣) بدوى : مؤلفات الغزالى ص ١٠٥

(٤) بدوى : مؤلفات الغزالى ص ١١٤

(٥) بدوى : مؤلفات الغزالى ص ١١٤ — ١١٥

١٣ — عبدالقادر العيدروس توفى ١٠٣٨ — ١٦٢٨ تعريف الأحياء بفضائل الإحياء .

١٤ — مجهول المؤلف : رسالة عن بعض فضائل الإحياء .

١٥ — السيوفى : تشييد الأركان فى ليس فى الامكان أبدع مما كان .

١٦ — مجهول المؤلف رسالة فى الرد على من اعترض على الغزالى فى المسببات . . . على الأسباب .

١٧ — مجهول المؤلف : الأجوبة المسكتة عن الأسئلة المبكتة على مشكل الإحياء .

هذا وللكتاب غير ما ذكرت شروح واختصارات ونقد يمكن مراجعتها لمن أراد التوسع فى المصادر المذكورة أدناه :

(ب) جواهر القرآن مطبوع (٥) :

١ — لم يخدم هذا الكتاب كما خدم سابقه خاصة فى القرنين التاليين لوفاة الغزالى ، أما فى القرن الرابع لوفاته فقد ألف قاسم الحنفى السودانى (٨٠٢ هـ — ٨٧٩ هـ) كتاباً فى تخريج أحاديث جواهر القرآن أشار إليه الشوكانى فى البدر الطالع[٣] .

---

(١) حاجى خليفة ، كشف الظنون جـ ١ عمود رقم ٢٤ والشوكانى : البدر الطالع جـ ٢ ص ٤٥ ، ٤٦ والسيوطى : حسن المحاضرة جـ ١ ص ٢٠٤ — ٢٠٥

(٢) بدوى ، مؤلفات الغزالى .

(٣) الشوكانى : البدر الطالع جـ ٢

(ﻫ) كيمياء السعادة مطبوع(١) :

هو كتاب باللغة الفارسية لا يختلف كثيراً عن كتاب الإحياء بل إن المرتضى يقول أن الغزالى ترجم فى هذا الكتاب كتابه الأحياء[٢] وقد عده الغزالى من بين الكتب الوسيطة التى ألفها عن التصوف[٣] ويبدو أن الكتاب على أهميته لم يحظ بالعناية التى حظى بها الأصل المترجم عنه أو الإحياء إذ لا يكاد يجد الباحث دراسة أو اهتماما به إلا فى الأزمنة المتأخرة حيث ترجم إلى التركية (سنة ١٠٠٠ ﻫ) وإلى الانجليزية بواسطة البانى فى نيويورك ٨٧٣م[٤] .

(و) البسيط فى الفروع :

والكتاب ما يزال مخطوطا حتى الآن وهو يدور حول الفقه الشافعى فيتناول بالدراسة عديدا من القضايا الفقهية التى اعتاد الفقهاء طرقها من مثل السبق والرمى والنذور والقضاء والشهادات والدعاوى والعتق والولاء والكتابة وعتق الأمهات والقصاص والجنايات . غير أنه يبسط القول فيها بسطا يستدعى من دارسة همة عالية ونية مجردة عما عدا العلم إذ أودع فيه مادة غزيرة استغرقت ستة أجزاء كاملة أن لم يكن فى أكثر من ذلك[٥] .

---

(١) بدوى : مؤلفات الغزالى ص ١٧٢ – ١٧٨

(٢) بدوى : مؤلفات الغزالى ص ١٧٨ .

(٣) الغزالى . المستصفى ج ١ ص ٤ .

(٤) بدوى : مؤلفات الغزالى : ص ١٧٥ .

(٥) عبد الرحمن بدوى مؤلفات ص ٩ فما بعدها .

(هـ) الوسيط :

لما رأى الغزالى الهمم فى طلب العلوم قاصرة والآراء فى تحصيلها فاترة، وعلم أن النزول إلى حد الهمم حتم وأن تقدير المطلوب على قدر همة الطالب حزم، صنف هذا الكتاب ليكون وسطا بين البسيط الذى هو داعية الاملال والوجيز الذى هو داعية الإخلال .

(و) قواعد العقائد :

ى فى الأصل قسم من كتاب الإحياء[1] غير أنها أفردت منذ عهد الغزالى فى كتاب خاص عرف بهذا الاسم وهى تتناول بالدراسة عقيدة أهل السنة .

يبدؤها المؤلف فى الفصل الأول بدراسة كلمتى الشهادة التى هى إحدى مبانى الاسلام ، ويتناول فى الفصل الثانى وجه التدرج إلى الإرشاد وترتيب درجات الاعتقاد .

وفى الفصل الثالث يتحدث عن الأركان الأربعة التى ينبنى عليها الايمان وهى معرفة ذات الله تعالى وصفاته وأفعاله ومعرفة السمعيات وبعد ذكر هذه الأركان الأربعة يقسم كلا منها إلى عشرة فصول :

أما فى الفصل الرابع فيتناول بالدراسة الايمان والاسلام وما بينهما من اتصال والانفصال وما يتطرق إليه من الزيادة والنقصان ووجه استثناء السلف فيه ويلخص ذلك تحت ثلاث مسائل، وبانتهاء هذه المسائل وما تفرع منها ينتهى الكتاب .

---

(۲) راجع إحياء علوم الدين جـ ۱ ص ۷۹ ، ۱ : ۱ .

تلك بعض نماذج من مؤلفات الغزالى ودراستها بل ودراسة غيرها من كتبه مما لم يسعفنى الوقت بتسجيلها على أن من أراد التوسع فى البحث فعليه أن يرجع إلى المراجع المختلفة التى أشرت إليها فى هذا الكتاب .

(تم بحمـــد الله)

ثبت بالمراجع

الخيـــاط :

المسعودى : مروج الذهب .

أحمد أمين : ضحى الإسلام .

الغـزالى : القسطاس المستقيم .

الغـزالى : فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة ضمن مجموعة القصور العوالى من رسائل الإمام الغزالى .

الدكتور فتح الله خليف : فخر الدين الرازى .

الشيخ محمد أبو زهرة : الغزالى الفقيه - أبو حامد الغزالى فى الذكرى المئوية التاسعة لميلاده بمجموعة أبحاث نشرت بدمشق سنة ١٩٦١ .

عبد الرحمن بدوى : مؤلفات الغزالى .

الخزرجى : العقود اللؤلؤية .

ابن حجر : الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة .

الادفوى : الطالع السعيد الجامع لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد .

الغـزالى : الوجيز - طبع القاهرة سنة ١٣١٧ هـ / ١٨٩٩م مطبعة المؤيد فى جزأين .

الفاكهى : شرح بداية الهداية للغزالى مخطوط بالمتحف البريطانى وقد طبع الكتاب بمصر سنة ٢٩٦ هـ .

أبو شامة المقدسى : تراجم رجال القرنين المعروف بالذيل على الروضتين طبع ١٢٩٦ هـ/١٩٤٧ م .

ابن تغرى : النجوم الزاهرة .

أحمد أمين : ظهر الإسلام .

الدكتور عبد الوهاب عزام : سوانح أحمد الغزالى - مجلة كلية الآداب العدد

الثامن ـ المجلد الثانى ـ ديسمبر سنة ١٩٤٦ مطبعة جامعة فؤاد الاول سنة ١٩٤٧ .
ابن شاكر : فوات الوفيات
الغـزالى : الرسالة القدسية
الغـزالى : الرسالة الوعظية
ابن خلدون : المقدمة
الغـزالى : تهافت الفلاسفة .
الغـزالى : المستصفى من علم أصول الفقه .
المقريزى : الخطط ــ طبع بولاق .
ابن الجوزى : تلبيس إبليس
الدكتورة فوقية حسين محمود : الجوينى إمام الحرمين .
الغـزالى : المنقذ من الضلال .
السيوطى : حسن المحاضرة
ابن عساكر : تبيين كذب المفترى فيما نسب إلى الإمام أبو الحسن الاشعرى .
ابن خلكان : وفيات الاعيان ــ تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد .
القلقشندى : صبح الاعشى .
محمد جمال الدين سرور : النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام والعراق فى القرنين الرابع والخامس بعد الهجرة طبع دار الفكر العربى سنة ١٩٤٦
ابن النديم : الفهرست .
فخر الدين الرازى : اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ــ تبصرة العوام .
محمد بن مالك : أسرار الباطنية وأخبار القرامطة طبع مصر سنة ١٩٣٩م .
ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أخبار العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الاكبر .
العثمان : سيرة الغزالى .
عبد اللطيف الطيار : التصوف العربى .

ابن العماد : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب .
الأصفهانى : تواريخ آل سلجوق .
ابن الجوزى : عبـــد الرحمن بن على بن محمد بن على بن الجوزى المتوفى سنة ١٣٥٧ هـ .
المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم القسم الثانى من الجزء الخامس الطبعة الأولى مطبعة دائرة المعارف العثمانية بحيدر أباد الدكن
الدكتور عبد القادر محمود : الفكر الاسلامى والفلسفات المعارضة فى القديم والحديث طبع المطبعة الحكومية بالخرطوم ١٩٧١ قسم التأليف والنشر جامعة الخرطوم .
القاضى النعمان بن محمد المتوفى سنة ٣٦٣ هـ - ٩٧٤م تأويل الدعائم أو تربية المؤمنين بالتوفيق على حدود باطن الدين طبع دار المعارف بمصر ٩٦٩. م
قمر كيلانى : فى التصوف الإسلامى مفهومه وتطوره وأعلامه .
طه عبد الباقى سرور : شخصيات صوفية .
ألبير نصرى نادر : التصوف الإسلامى .
عبد الكريم الخطيب : نشأة التصوف .
عمر فروخ : ابن باجه والفلسفة المغربية .
الغزالى : مشكاة الأنوار .
الغزالى : الحكمة فى مخلوقات الله عز وجل — روضة الطالبين وعمدة السالكين .
بروكلمان : تاريخ الادب العربى ، تعريب الدكتور النجار — النبوع المغربى .
ابن حزم : ملخص إبطال القياس والرأى والاستحسان والتقليد طبـــع دمشق سنة ١٩٦ م .
اليافعى : مرآة الجنان .
الغزالى : الرسالة اللدنية
طاشكبرى زاده : مفتاح السعادة ومصباح السياده .
الغزالى : ميزان العمل .

الغزالى : الاقتصاد فى الاعتقاد
الغزالى : جواهر القرآن .
الغزالى : الجام العوام عن علم الكلام .
عادل زعيتر : الغزالى (معرب) .
ياقوت الحموى : معجم البلدان
رينان : ابن رشد والرشيدية .
أبو جعفر أحمـــد بن الزبير : ذيل كتاب الصلة لابن بشكوال طبع الرباط سنة ١٩٣٨ .
الشيخ محمد نووى الجاوى : شرح مراقى العبودية على بداية الهداية تم تأليفه سنة ١٢٧٩ وطبع بالقاهرة سنة ١٨٨١م .
نفحات العناية بشرح بدايه الهداية .
الغزالى : غاية النور فى دراية الدور — مخطوط المتحف البريطانى موضوع فى صدارة ١٨ كتاباً ليست للغزالى .
الغزالى : رسالة أيها الولد — نشر توفيق الصباغ وله طبعة أخرى ضمن مجموعة القصور العوالى من رسائل الإمام الغزالى .
ابن الصلاح : المنتقى من كتاب المهذب فى ذكر شيوع المذهب .
السمعانى : الانساب .
الذهبى : سير أعلام النبلاء مخطوط نشر جزءاً منه الدكتور عبدالكريم العثمانى فى كتابه سيرة الغزالى .
حاجى خليفة : كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون .
ابن النجار : تاريخ بغداد .
أخبـــار القرامطة باليمن المنقول من كتاب السلو للقاضى أبى عبد الله يوسف المعروف بالبهاء الجندى والكتاب المشار إليه مكتوب فى آخر كتاب تاريخ اليمن لنجم الدين بن عمارة بن أبى الحسن على المنى اليمنى وهو ضمن مجموعة الكتب التى طبعت بلندن فى مجلد.

واحد سنة ١٣٠٩ ﻫ وترجمها إلى الإنجليزية فى سنة ١٨٩٣ .

الغزالى : فضائح الباطنية وفضائل المستظهرية .

القمى : المقالات والفرق طبع طهران سنة ١٩٦٢

بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية .

البغدادى . الفرق بين الفرق .

الجرجانى : شرح المواقف .

الزبيدى : اتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين .

ابن الملقن : طبقات الشافعية مخطوط نشر جزءاً منه الدكتور عبد الكريم العثمانى فى كتابه سيرة الغزالى .

الغزالى : المقصد الاسنى ، شرح أسماء الله الحسنى .

الغزالى : معارج القدس .

الغزالى : مشكاة الانوار .

الشهرستانى : الملل والنحل .

نشر كيلانى طبع الحلبى سنة ١٦٦١ م والكتاب طبعة أخرى بهامش الملل والنحـــل لابن حزم طبع المطبعة الادبية الطبعة الاولى سنة ١٣١٧ .

ابن الاثير : تاريخ ابن الاثير .

ابن منظور : لسان العرب .

طبعة مصورة عن طبعة بولاق المؤسسة العامة للتأليف والانباء والنشر الدار المصرية للتأليف والترجمة .

الدكتور على سامى النشار : نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام .

الاشعرى : مقالات المسلمين :

كشف أسرار الباطنية والقرامطة

الحسين محمد بن أحمد بن عبد الرحمن المالى المتوفى سنة ٣٧٧ ﻫ . . كتاب التنبيه

والرد على أهل الاهواء والابدع طبع سنة ١٣٦٩ هـ .

زكى مبارك : الاخلاق .

السبكى : طبقات الشافعية .

محمد كامل حسين : طائفه الإسماعيلية تاريخها نظمها عقائدها طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر الطبعة الاولى سنة ١٩٥٩ م .

ابن جبير : رحلة ابن جبير

الغزالى : إحياء علوم الدين

الغزالى : بداية الهداية .

ابن تيمية : الصوفية والفقراء .

الوهراوى : الفقه والتصوف .

الشرباصى : التصوف عند المستشرقين .

الشيخ الحافظ التجانى : أهل الحق العارفون بالله السادة الصوفية ،

السهروردى : عوارف المعارف .

ابن قتيبه الاختلاف فى اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة .

الدكتور محمد غلاب : التصوف المقارن .

ابن طفيل : قصة حى بن يقظان .

القفطى : أخبار العلماء بأخبار الحكماء ليبسكى سنة ١٩٠٣

ابن أبى أصيبعه طبقات الأطباء . مصر الطبعة الأولى سنة ١٨٨٩

المقرى : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب — مصر الطبعة الاميرية .

دى بور : تاريخ الفلسفة فى الإسلام تعريب عبد الهادى أبو ريده — القاهرة سنة ١٩٣٨ م .

دائرة المعارف الإسلامية

الدكتور زكى مبارك : التصوف الإسلامى .

الطوسى : اللمع .
القشيرى : الرسالة .
عفيفى : التصوف الثورة الروحية فى الإسلام .
الدكتور سليمان دنيا : مفهوم التصوف ــ طبع سنة ١٩٦٠
الفتح بن خاقان : قلائد العقيان ـ باريس سنة ١٢٧٧ هـ .
البيجورى : تحفة المريد على جوهرة التوحيد ـ طبع مصر سنة ١٣٥٤ هـ .

محتويات الكتاب

دور الغزالى فى الفكر

رقم الإيداع بدار الكتب ٤٣٩٢ / ١٩٧٨